بقلم الكاتب الصحفي/

حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

عن إيمان ويقين، وحب ورغبة

أهدي هذا الكتاب إهداء الصادقين المخلصين

أهديه بكل كلمة فيه، لهذا الرجل الذي حقق معانيه، وتجسد فيه معنى البذل والعطاء والبر بالإنسان، فغمر الجميع بكرمه، وعم الكل بجوده، وشمل المحتاجين بمنة الله عليه، حتى صار في خيالي رمز البر، وشارة الإحسان، وصورة تامة للإنسان الرحيم..

إلى المحسن الكريم، والأخ العزيز، والقريب الأريب (محمد مختار أبو شادي) الذي

أقول فيه ما قال الشاعر العربي القديم:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ** دعاه لقبض لم تطعه أنامله

لو لم يكن في كفه غير روحه ** لجاد بها فليتق الله سائله

خير الناس أنفعهم للناس

تأليف الكاتب الصحفي/

حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة

كثير من الناس تاهوا في حياتهم عن معنى السعادة الحقيقية، وصارت كل أيامهم آلامًا وآهات.. هموماً وعذاباً.. فراغاً واكتئاباً، خواءًوانزواءاً.. ولم تستطع أعظم الاستشارات الطبية والنفسية، أن تحل في نفوسهم هذه المعضلة، أو توجد في صدورهم معنى السعادة التي أعياهم البحث عنها كثيراً.

مارسوا كل الهوايات والملهيات، وتسلوا بجميع الألعاب والمباريات، أكلوا وشربوا وشاهدوا الأفلام والمسرحيات، ضحكوا وابتسموا وتغنوا بجميل الكلمات، ولا زالوا مع هذا كله يهيمون في الضيق، ويمزقهم القلق، وتعصرهم الهموم، فلا البال مرتاح ولا النفس سعيدة هانئة، وإذا بهم يجدون شيئاً هناك قابعاً في نفوسهم، يطرد منها أي إحساس بالراحة والغاية والحقيقة، لا يعرفون ما هو، ولا كيف يصرفونه أو يقتلعونه من كيانهم؟!

وفي ظل هذه الحيرة المزعجة التي كدرت صفاء الحياة، وأشقت أيام أولائك التائهين الشاردين.. يخرج علينا العلم الحديث، ليكشف عما ذكره ديننا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، فيوجه الضائعين الحزانى ويخبرهم بأن خير وسيلة تخلق السعادة داخلهم، أن يصرفوا أوقاتهم في العمل التطوعي وخدمة الآخرين، ومساعدة المحتاجين والمتأزمين، وهي الوصية السحرية التي تجلب السعادة، ويزول معها أي إحساس بالفتور والضيق.

ولعل هذا يعد كشفا جديدًا في مجال الإعجاز العلمي لديننا.. وإضافة تشهد بسموه وصدارة تعاليمه.. فالإسلام عظم من خدمة الآخرين، وجعل من قضاء الحاجات عبادة يثيب الله تعالى عليها ويرضى عن صاحبها، وبيّن نبيه ﷺ أن الإيمان مرهون بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه؛ حتى يصير الجميع جسدًا واحدًا متحدًا مترابطاً.

إن الإنسان لا يمكن له أن يكون على شيء من الإنسانية، وهو يرى الناس من حوله في عذاب وهموم، يعانون ويتألمون ويشتكون، ثم يعرض عنهم ولا يبالي.. لا يمكن له أن يكون على شيء من الدين والضمير والرقي، حينما يتجرد من معالم الرحمة، وبواعث الرفق والشفقة، وتصير مشاعره تجاه البشر كالحجارة أو أشد قسوة.!

ما أتعس حياة الإنسان اليوم، لقد تأزمت محنته وصار يبحث فيها عن طريق للخلاص فلا يجد، أو وطن آمن يحيا فيه كريما فلا حيلة، أو أمة تُقدر قيمة الإنسان وتعلي آدميته فلا أمل.!

قتل هنا وتدمير هناك، وحياة كريهة تعج بالشرور والآثام، وأمم تدعي كذبا أنها راقية متحضرة، تحفظ كرامة الإنسان وحقوقه، وهي في حقيقتها ذلك الوحش الغبي الذي لا تشبع نهمته من دماء الناس، ولا تكل رغبته في الاحتلال والنهب والسلب، لقد امتلأ العالم غدرًا وشراً، وتسلط أقوياؤه على ضعفائه، وحولوا ربوعه إلى غابة موحشة تضج بالظلم والآثام والطغيان.!

وكم تشتد بي الآلام حينما أشاهد هؤلاء الذين يصرعهم الجوع والمرض في صحراء أفريقيا وربوعها النائية الفقيرة، أتذكر أعينهم التي جف الدمع في مآقيها، لكنها مع جفافها مازالت قادرة على بعث إشارات الحزن والأسى بقوة وغزارة، مازلت أتذكر صورة مؤلمة لا ينساها خيالي، أراني إياها أحد المتطوعين في عمليات الإغاثة في مجاعات النيجر، وكانت لطفل أنهكه الجوع وافترسه المرض، ويستشرف لحظة الموت، ويحتضر في ساعاته الأخيرة ، لأنه لم يجد شيئاً يدخل جوفه، قال لي المتطوع: حينما زرنا مخيم (منقازي)، كان معنا بعض الحلوى نوزعها على الأطفال ونُسعدهم بها، ولاحظت طفلاً من بعيد مستلقيًا على جنبه الأيمن تحت شجرة مورفة، موجهٌ للقبلة، مريض يحتضر، ينتظر الموت، فأخذت بعض الحلوى وذهبت إليه، وأردت وضعها في فمه، فأمسك بيدي وأخذ الحلوى، وأطبق عليها بيديه، وتركته ومشيت، ولست أدري ربما تكون آخر ما دخل جوفه، أو آخر ما تركه لأبويه بعد موته.!

وبقدر ما أجد من حرارة هذه المشاعر في نفسي، وبقدر ما تصيبني مرارتها بحزن كثيف، بقدر ما أطمئن على إنسانيتي وقلبي الذي ما زال متصلاً بآدميته، ويحيا فيه الضمير والإيمان، لأرى فرقًا كبيرًا بيني وبين أولائك العتاة الأوغاد، الذين تبتهج نفوسهم بتعذيب البشر وإفناء الشعوب وإبادة الأمم.

ولعل هذه السطور تعبر عما أجد داخلي من معاني الهم والأسى لمحنة الإنسان، أو تكون رثاءً للمعذبين في كل مكان، أو تكون دعوة صادقة لكل منا أن يعيش لغيره، فيرعى الضعفاء، ويكرم الفقراء، ويطعم الجائعين، ويقضي حاجة الضائقين؛ حتى ينهض مجتمعنا متراحما مترابطاً.

كما أنها أزاحت النقاب عن حقائق عظيمة من تاريخ هذه الأمة، وإنسانيتها الفريدة، التي لم تستطع أمة من الأمم أن تحاكيها فيما قدمته من إنصاف الإنسان وإكرامه وتقرير حقوقه، مهما كان جنسه أو لونه، لأنها حضارة لم تستق إنسانيتها من طبع فيها، أو خلق جُبلت عليه، وإنما كانت هذه المعالم الراقية، مبعث دين عظيم دانت به وطبقت تعاليمه، دين خاطب الله تعالى نبيه ومبعوثه بقوله: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

حاتم إبراهيم محمد سلامة

الرياض ١/ ٥/ ١٤٤١هـ

عش لغيرك!

ماذا يكون حالك أيها الإنسان لو قيل لك من وجيهٍ أو غنيٍ أو ذي سلطانٍ: سل حاجتك؟!

لا شك أنك ستظل تبحث عما تحتاجه أو يحتاجه أهلك وذويك من أمور الدنيا والمعاش؛ لتغتنم هذه الفرصة الذهبية، التي لا تمنحها الأقدار للكثيرين.! لكن.. لماذا تفكر في نفسك دائماً، ولا تفكر في الآخرين؟ لماذا لا تكون كهؤلاء الذين يعيشون لغيرهم؟! لماذا لا تكون كعبد الله الذي تعرض هو وأخوه لاختبار معاوية ﷺ؟ فكان ما كان من تباين الهِمم واختلاف الغايات، نعم كان منهما من يعيش لنفسه، ومن يعيش للناس.!

"وفد على معاوية ﷺ بدمشق، عبد الله وعبد الرحمن ولدا صفوان بن أمية ، ومع أن عبد الرحمن هو ابن أخت معاوية؛ إلا أنه قرب أخاه عبدالله دونه ، ولما أرسلت أخته (أم حبيبة بنت أبي سفيان) تعاتبه أن قرب البعيد؛ وبعد القريب ..كان رده عليها عملياً حين عقد لهما امتحاناً عسيراً، لقد أذن لابن أخته القريب (عبد الرحمن) أن يدخل عليه ، ثم قال له : سل حوائجك؟

قال: فذكر دينا وعيالاً.. فأعطاه وقضى حوائجه.

فلما أذن لعبد الله وقال له: سل حوائجك؟ قال: تخرج العطاء، وتقرض المدينين، وترفد الأرامل القواعد؛ وتتفقد أحلافك الأحابش! قال معاوية: أفعل ما قلت، فهلم حوائجك! قال عبد الله: وأي حاجة في غير هذا؛ أنا أغنى قريش.! ثم انصرف، فقال معاوية لأخته: كيف رأيت؟!"[1]

لقد رأت حقاً أخوين بينهما بعد المشرقين، أما ابن أختها عبد الرحمن، فقد كان مهتمًا بنفسه وأهله، وأما عبد الله فهمومه على قدر همته، همته المعلقة بالثريا، بالمحتاجين والمدينين، والعجزة والمعوقين وكان صمتها عندئذ أبلغ من الكلام.

حينما تكون نفوسنا محبة للخلق، شاعرة بآلامهم، فإنها تتمنى لو أتيح لها جبالاً من الخير لتدفع به فاقة الناس وعوزهم، وهذا التمني يحبه الله، وقد يثيب صاحبه بما لو كان قد تحقق فعلا في الواقع، فالله تعالى يعظم النية ويثيب عليها، انظر لهذا الأثر وكيف مدح الله هذا المتمني وأثابه على قدر ما تمنى.. إنه لم يفعل شيئًا سوى أن دار بخياله حب الخير للناس؟!

[1] - الإصابة في تمييز الصحابة- لابن حجر العسقلاني

"روي أن رجلاً من بني إسرائيل مر بكثبان رمل في أيام مجاعةٍ أصابت قومه ، فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً ..لقسمته بين الناس حتى يشبعوا !، فأوحي الله تعالى إلى نبيهم أن قل لفلان : إن الله قد قبل صدقتك ، وشكر لك حسن نيتك ، وأعطاك ثواب ما لو كان هذا الرمل طعاماً فتصدقت به!"[1] وهكذا كان الجزاء.. على الصفاء..

يقول ﷺ: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)[2]

لا أعرف من أقوال الدنيا قولاً يغرس التفاؤل في النفوس، كما يفعل هذا الحديث الشريف لرسولنا ﷺ، ولنا أن نتساءل في تأمله.. متى تُثمر هذه الفسيلة، وقد توقف الزمن وقامت القيامة؟! ومن ذا الذي سيأكل منها؛ وقد فنيت الدنيا، والناس إما إلى جنة أو إلى نار؟!

والجواب: لا أحد..لكن الرسول ﷺ، يُريد أن يربي فينا قلوباً تبذر الخير دون انتظار الأجر، إلا من الله سبحانه، بل دون أن نرى ثمرتها وخيرها، أو تعود علينا بشيء من النفع المادي، وقد قال أحد المتأملين: لاحظوا أن هذه الفسيلة المزروعة، والتي ضُرب بها المثل، لا تُثمر إلا بعد تسع سنوات فأكثر.! إن هذه الروح الإيجابية العظيمة، وهذه النفس البارة الخيّرة؛ ورثّها الرسول ﷺ قلوب أصحابه، فلقد روي أن رجلاً مر على أبي الدرداء ﷺ، وهو يزرع (جوزة) فقال: أتزرع هذا وأنت شيخ كبير؟! وهذه لا تطعم إلا في كذا وكذا عاماً! فقال أبو الدرداء: ما عليّ أن يكون لي أجرها، ويأكل منها غيري.

ولله در القائل: (عش لنفسك تحيا قليلاً.. عش لغيرك لن تموت أبدًا)

نعم.. تعيش وتبقى حياً في قلوب الناس بأعمالك وبرك وحبك للآخرين، ومهما طال الزمن وامتد ستظل حيًا بما تركت من آثار أسعدت بها الفقراء والمكروبين، ومن جميل ما ذكره المفسرون في تفسير قصة الغلامين اليتيمين، اللذين أنقذهما الله بالخضر عليه السلام وذكر السبب بأنه (وكان أبوهما صالحًا، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك..)[3] وأن هذا

[1] - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - علي بن سلطان محمد القاري
[2] - رواه البخاري وغيره
[3] - الكهف:٨٢

الأب الصالح ليس هو أبوهما المباشر، بل كان سابع جد! وصلاح هذا الجد البعيد وصلت آثاره إلى أحفاد الأحفاد.!

وهنا يصور عبقري البيان بلغته العزبة وأدبه الفريد، كيف تطول حياتك لو عشت لغيرك؟ وكيف تقصر بأيامها ولو كانت طويلة حينما تعيش أنانيًا لذاتك ولا تبصر غيرها؟! فيقول:

(عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود! أما عندما نعيش لغيرنا، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتمتد بعد مفارقتها لوجه الأرض، إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة، فتصور الحياة على هذا النحو ، يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا ، وليس الحياة بعدد السنين، ولكنها بعدد المشاعر)[1]

إن العيش من أجل الآخرين، والحرص على تقديم الخير والنفع لهم، يدلل بوضوح على معاني الإنسانية السامية، والنبل الرفيع، الذي يسمو بمقام صاحبه عن الحيوان، الذي يسمن نفسه ولا يرعوي بغيره.!

إن الأمم لا تسمو ولا تهفو إلى الرقي، إلا حينما يكرم فيها الإنسان، وتحترم آدميته، وتقرر له حقوقه واحتياجاته، ولا تتسابق الأديان والأفكار في جودتها وصلاحيتها إلا بقدر ما تقدمه للإنسان من خير ورخاء، وبقدر ما تقرر من احترامه وتقديره.! والبشرية عبر تاريخها الطويل لم تعرف دينا كالإسلام، أعلي من كرامة البشر، وأنصف الفقراء والمظلومين، ونادي بالعدالة والمساواة كما فعل الإسلام، ولم العجب؟ فهو الدين الوحيد الذي قاتل من أجل الفقراء.!

يقول (القرضاوي) في إحدى ندواته: "إن الأديان السماوية كلها، بل والوضعية أيضاً، دعت إلى الإحسان إلى الفقير، ولم يصل دين من الأديان إلى ما وصل إليه الإسلام من الاهتمام بالفقراء والمساكين، حيث اعتبر أخذهم من مال الأغنياء حق، بل حق معلوم (وفي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم)[2] ولهذا جيَّش الصدِّيق الجيوش وبعث الجنود لقتال مانعي الزكاة وقال قولته الشهيرة: والله لو منعوني عقالاً لقاتلتهم عليه".

[1] - أفراح الروح- سيد قطب
[2] - الذاريات:١٩

وخاطب أمير الشعراء نبينا ﷺ بقوله:

جاءت فوحدت الزكاة سبيله ** حتى التقى الكرماء والبخلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ** فالكل في حق الحياة سواء

إن إدراك حقوق الغير من صميم الإسلام، وإهدارها جريمة لا تقبلها الضمائر الحية، والنفوس الراقية، وخليق أن تنهض أجيالنا على هذه الأفكار، ليصير مجتمعنا إنسانيًا بمعنى الكلمة، تتراحم أطيافه، وتتعاطف فئاته فيما بينها، وكم كان طريفاً أن يحمل طالب في المرحلة الثانوية هموم الناس ويفكر في المحرومين منهم؟! حينما صاغ مادته الإنشائية على غير ما يرغب أستاذه ومعلمه، وهو ما حدث للدكتور (عبد الوهاب المسيري) رحمه الله حيث قال في رحلته الفكرية:

(أذكر ذات مرة أن أستاذ اللغة العربية الأستاذ (عوف) طلب مني وأنا في الثانية من المرحلة الثانوية ، أن أكتب موضوع إنشاء تحت عنوان (حديقة منزلكم) والإنشاء لم تكن مادة نتعلم فيها كيف نرتب أفكارنا ونحولها إلى كلمات مكتوبة وبنية منطقية متماسكة، وإنما كانت قوالب لفظية جاهزة نحفظها عن ظهر قلب، ثم نرصها رصًا حين تحين المناسبة، ومن هذه القوالب التي مازلت أذكرها مجموعة من الكلمات تعبر عن موقفي من الطبيعة: فهي تخلب اللب، وتشرح الصدر ، وتملأ القلب روعة وجلالاً، وبالطبع كانت هناك الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والأمثلة التي نرصع بها ما نكتب أو ما نُنشيء، ضقت ذرعاً بكل هذا، فكتبت موضوع إنشاء أقول فيه ما أحس به، وبدأ الموضوع بتأكيد أن منازل الفقراء ليس بها حديقة، وأن أطفالهم لا يعرفون معنى الحدائق ويعيشون بين أكوام القمامة، وهاجمت الظلم الاجتماعي بشكل عام، فأعطاني الأستاذ صفرًا على هذا الموضوع، وأبلغ أهلي عن كتاباتي الشيوعية، وبطبيعة الحال لم تكن لها أي علاقة بالشيوعية التي لم أكن أعرف عنها شيئاً آنذاك، أو أي مذهب سياسي، وإنما كانت تعبيراً عن رفض فتى يافع للظلم الاجتماعي الواقع على أعضاء المجتمع.) [1]

ثم تأمل معي أيها القاريء حينما يحتضر كثير من الناس وتحين لحظة فراقهم للدنيا ووداع الأهل والأبناء، إنهم يغترفون من متع الدنيا قدر ما استطاعوا قبل رحيلهم الأبدي.! ثم يحصنون

[1] - رحلتي الفكرية - د. عبد الوهاب المسيري

أبناءهم بالدور والقصور ، ويوصونهم بما يحميهم من عوادي الزمن وأحداثه، وهذا كائن ومعلوم فيمن ملكت الدنيا قلوبهم وعقولهم، أما أهل الله..فإنهم كانوا على خلاف ذلك حين أدركتهم هذه اللحظات الحرجة، فلم ينشغلوا بأنفسهم أو يهتموا بمن خلفهم من الأهل والأبناء والذرية، بقدر ما انشغلوا بأمر الناس، كيف يستطيعون في هذه الأوقات الضيقة السريعة أن يقدموا لهم خدمة أو يسدوا لهم معروفاً وخيراً ؟!فهذا إمام المسلمين (أبو حنيفة)ﷺ يعطينا المثل والقدوة في هذا.. تأمل كيف كان حرصه على خير الناس، وهو في الرمق الأخير من حياته.؟!

يحكى تلميذه (أبو يوسف) فيقول: كان (أبو حنيفة) يحتضر، فطلب ورقة وقلماً ليحل مسألة وقال: (لو بقى من العمر لحظة، لوددت أن أفعل فيها شيئاً ينفع المسلمين أقابل به ربى)

حتى الذين يؤذونه ويؤرقونه.. كان يقدم لهم الخير ويسعى لنجدتهم إذا مسهم الأذى، فقد كان له جار يشرب الخمر ويغرد بصوته كل يوم:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ** ليوم كريهة وسداد ثغر

كان الإمام ينزعج من جلبته، ثم افتقده في يوم من الأيام ولم يسمع به، فسأل عنه فعلم أن الشرطة أخذته، فذهب إليه وشفع له عند الأمير ليخلي سبيله، فقال الأمير: وكل من أُخذ في تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة.! فلما خرج الفتى قال له الإمام: أأضعناك يا فتى؟ وعوضه بمال عن أيام حبسه، فتاب الفتى، وأخذ يتردد على مجلس أبي حنيفة حتى تفقه..

تأمل ماذا صنع الإمام الفقيه من الفتى المذنب شارب الخمر؟! لقد حببه في العلم والدين وارتياد المساجد حتى صار فقيهاً متديناً، ولو كان هناك أناس في مكان الإمام الكبير لقالوا: الحمد لله الذي أراحنا منه وعاقبه بذنبه، فبئس الجار هو، ولربما كسر عليه أحدهم بابه، وانتزع منه الخمر وأراقها على رأسه، ونعته بالفسق والفجور، لكن الإمام لم يفعل شيئاً من هذا، لأنه كان فقيه دعوة، قبل أن يكون فقيهاً في المسائل.!

يقول (الغزالي) في إحيائه:

(ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك وأهم من حاجتك، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة

إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقًّا بسبب قيامك بها، تتقلد منه بقبول سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد)

لقد كان هذا حال السلف الصالح وإيمانهم وقناعتهم.. يحبون خدمة الناس، ويفنون أوقاتهم وأموالهم وقوتهم في مساعدتهم وقضاء مصالحهم وحوائجهم، لقد كان ذلك العطاء أحب إليهم من الدنيا وما فيها.!

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (ثلاثة لا أجازيهم أبداً، رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل أغبرت قدماه في المشي إلى إرادة التسليم علي، فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله، قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر، فبات ليلته يفكر بمن ينزله ثم رآني أهلا لحاجته فأنزلها بي)[1]

بل كانوا يعتبرون من يعرض عن قضاء الحاجات وخدمة الناس من الأموات، وقد قال أحدهم: (إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها، فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى، فإذا لم يقضها.. فكبر عليه واقرأ هذه الآية: (والموتى يبعثهم الله)[2]

"وقضى (ابن شبرمة) حاجة لبعض إخوانه فجاءه بهدية فقال: ما هذا؟ قال لما أسديته إليّ فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها.. فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده من الموتى."[3]

ويقول (جعفر بن محمد): (إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني. هذا في الأعداء، فكيف في الأصدقاء ؟!)

وكان (أبو عثمان) شيخ الإمام البخاري يقول: (ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنا له بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان)[4]

[1] - المجالسة وجواهر العلم للدينوري
[2] -(الأنعام:٣٦)
[3] - إحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي
[4] - علو الهمة - المقدم

وكذلك كان (الليث بن سعد) إمام مصر.. حينما كان يجلس للمسائل فيغشاه الناس يسألونه، فيجلس لحوائجهم ولا يرد من سأله منهم.. كبرت حاجته أو صغرت..

وكان (الحسن) إذا فقد الجليس من إخوانه أتى منزله، فإن كان غائباً وصل أهله وعياله، وإن كان شاهداً سأله عن أمره وحاله، ثم دعا بعض ولده من الأصاغر، فأعطاهم الدراهم ووهبها لهم وقال: أبا فلان، إن الصبيان يفرحون بهذا، كما لقي مرة أخًا له.. فلما أراد أن يفارقه خلع عمامته فألبسه إياها وقال: إذا أتيت أهلك فبعها واستخدم ثمنها.

وقال مجاهد: صحبت (ابن عمر) أريد أن أخدمه، فكان هو الذي يخدمني.!

روى (الخطيب) عن (عبد الله بن الخطيب): (أن الطيب إسماعيل أبا حمدون من القراء المشهورين كانت له صحيفة مكتوب فيها ٢٠٠ من أصدقائه، فكان يدعو لهم كل ليلة فتركهم ونام، فقيل له في نومه: لم لم تسرج مصابيحك الليلة؟ فقعد فأسرع وأخذ الصحيفة فدعا لهم واحداً واحداً حتى فرغ.!)

وإذا أردت طريقاً من طرق الجنة.. فكن مثل هذا الرجل الذي صحب جماعة من المسلمين في الجهاد في سبيل الله، وكان شرطه عليهم أن يخدمهم.. فإذا أراد أحد منهم أن يغسل رأسه أو ثوبه قال: (هذا من شرطي فيفعله، فمات فلما جردوه للغسل، رأوا على يده مكتوباً: (من أهل الجنة)! فنظروا فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم.!)[1]

وكان أحدهم يضر نفسه ليحمي غيره، يجلب لنفسه الخسارة في تجارته وماله حتى لا تصيب أحداً من المسلمين، وهو ما فعله (أبو عبد الله الخياط) (الذي كان يجلس في حانوته (دكانه)، وكان له (حريف) -زبون- مجوسي يعامله في الخياطة، فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه المجوسي دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذها منه، ولا يُخبره بذلك، ولا يردها إليه.. فحدث يوماً أن ترك الحانوت وقام لبعض حاجته، فأتى المجوسي، فلم يجده، فدفع إلى غلامه الجرة، وأخذ ما قد خيط له، وكانت الأجرة درهماً زائفًا، فلما نظر الغلام.. عرف أنه زائف فرده إليه، فلما عاد أبو عبد الله

[1] - من أدب الأخوة - عبد الرحمن العقل- مجلة البيان

أخبره الغلام بما حدث فقال أبو عبد الله: بئس ما فعلت.! إن هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة، وأنا أصبر عليه، وآخذ الدراهم منه، وألقيها في البئر؛ لئلا يغش بها مسلماً آخر..)

وإذا كانت السنة طويلة في فعل (أبي عبد الله الخياط) ، فقد قرأت نبأ تلميذ صيني بالمرحلة الثانوية ظل ثلاث سنوات بالتمام والكمال، وهو يتحمل مسؤولية ضمان ألا يتغيب صديقه (زهانغ) المعاق جسديًا عن أي حصة، وكان (زيوزو) (١٨ عاما) قد التقى زميل دراسته (زهانغ) تشي (١٩ عاما) عندما التحقا بمدرسة ثانوية في مدينة (زوزهاو) بشمالي الصين..ويعاني (زهانغ) من داء نقص التغذية العضلية الذي يوهن العضلات الهيكلية، مما جعله عاجزًا عن المشي تماما، ومن ثم ..قرر (زيو) حمل صديقه على ظهره حتى لا يفوته أي درس، وظل يفعل ذلك طوال ثلاث سنوات بلا انقطاع، ويعيش الصديقان في السكن الداخلي المجاور للمدرسة، ويقوم (زيوزو) يومياً بحمل (زهانغ) من غرفته إلى المدرسة ويعيده إليها في نهاية اليوم الدراسي، ويساعده في الحصول على وجبات الطعام وغسل ملابسه، ويقول (زيوزو): إنه يحمل صديقه هنا وهناك بين الحصص، ويتجول به في المدرسة، وينتقل به بين المدرسة والسكن عدة مرات في اليوم الواحد.!

ربما تقدم الخير في يوم أو يومين أو موقف أو موقفين، لكنك هل تستطيع أن تثابر عليه بالسنين كما فعل هذا التلميذ الصيني الذي بذل من وقته وصحته لصديقه المعاق؟! إنه عمل لا يقوى عليه إلا من وجد السعادة فيه، ولا يثابر عليه إلا من عرف أن يعيش في الدنيا.. لا لنفسه وإنما لغيره.!

السعادة الحقيقية

يضج العالم اليوم بكثير من المآسي والآهات، ويعاني الإنسان فيه صنوفًا من الشقاء والعناء، ولا يكاد المرء منا يتتبع أحوال العالم هنا أوهناك، حتى يرى النوازل والمصائب في كل مكان تفتك بالبشر، فتفني أجيالهم وتزهق أرواحهم، ومع ما وصل إليه العلم الحديث من صور التقدم العلمي والتطور العقلي، إلا أنه لم يستطع أن ينهض بأخلاقه ويطور من قيمه، مع هذا التقدم العظيم الذي كان من المفروض أن يسعى لخير الإنسان وراحة البشر، لم يجد الإنسان معه إلا كل عناء وشقاء وعذاب أليم.. لقد كان أبي رحمه الله أديباً مطبوعاً، وكان له مقال رشيق يذكر فيه هذا

المعنى، ويطالب الإنسانية أن تثور على واقعها وأخطائها، فتحت عنوان (التكنولوجيا والآلام) كتب أبي رحمه الله:

(ارتقى العلم فوسع ما ضاق من أفق الإنسان، به صعد إلى السماء وبز الكواكب في أجوائها، وغاص في أعماق البحار والمحيطات وبين أمواجها، داعب الحيتان ولاعبها في مراقدها، ومن بطن الأرض أخرج ما خبأته في أحشائها ملايين السنين، وأصبح يرى بالمجهر والتلسكوب وغيرهما على نحو ما رأت الزرقاء في الزمن القديم وأبعد، وأغراه هذا السيل الجارف من المخترعات أن يستنبت إنسانا سماه طفل الأنابيب مثلما صنع شبيها له وسماه الإنسان الآلي، وانبهر بكل هذا حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من قول الله سبحانه: (وظن أهلها أنهم قادرون عليها..)

وإن لك البر والبحر والجو يا صاح، فهل استطعت بهذا التقدم الخرافي بالتكنولوجيا أن تجد علاجاً لأمراض النفوس؟! وتنزع من أعماقها جذور الشر المليئة بالحقد والجشع والخسة والنذالة والكراهية؟! وترفع الظلم الذي تضج منه الأرض وتنزف الأسى والدماء؟! هل تستطيع أن تقدم التكنولوجيا لآلام البشرية فتشفي ملايين المرضى وتشبع عشرات الملايين من الجياع وتنصف المستضعفين الذين يستصرخون فيك إنسانية الإنسان.. أليس من العار ومن أحط درجات التخلف، أن تظل الحروب تدمر وتشوه كل ما خلقه الله الذي جعل دستور الناس في الحياة: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..) (الحجرات :١٣) ويصدق فينا قول الملائكة: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء..)؟! (البقرة:٣٠)

أيها الإنسان أنت في قمة تفوقك غارقٌ في هوة عجزك، فهل تستطيع أن تحيي ميتًا أو تشفي مجزومًا أو مريضاً بالإيدز؟!هؤلاء البشر.. يومٌ يصعد بهم الغرور في سماء الظنون والأباطيل والأوهام، ويومٌ آخر يسقهم للإعتراف بالعجز والمذلة.. مساكين يستحقون الرثاء.!)

رحمك الله يا أبي، فما أرشق قلمك! وما أبلغ مدادك! وما أجمل تأملك لهذا الإنسان الحائر الذي تهرب السعادة من بين يديه وهو قادر عليها.!

لقد قرر حكماء النفوس أن خير طريق لقهر الهموم والنجاة من جحيم أشباحها.. أن نتعامل معها بحكمة ونقوم بترويضها، حتى ينصرف عنا بلاؤها، تمامًا كما كان البحارة يفعلون في عاداتهم حين يلتقون بحوت كبير في البحر، فقد كانوا يلقون إليه بقارب صغير فارغ لينشغل بمهاجمته عن مهاجمة السفينة الأصلية حتى لا يغرقها.. ثم يحاولون خلال انشغاله بملاطمة القارب الفارغ – صيده- أو النجاة بسفينتهم بعيداً عنه.. وكذلك ينبغي أن نفعل نحن أيضاً مع حوت أحزاننا وهمومنا، لكيلا يلتهمنا ويقضي علينا، أن نشغله عنا.. بالاندماج في العمل والحياة الاجتماعية والمجاملات الإنسانية والعمل لراحة الآخرين.

وأرى أن خير سبيل لإزالة الهموم هو استدعاء الهموم! ولعل المعنى غريباً بعض الشيء، أو يستحق بعض التوضيح والبيان! فأقصد أن نستجلب هموم الآخرين ونعايشهم ونشاركهم آلامهم وأحزانهم ووجدانهم.. ساعتها وكطريقة مجربة.. لن يكون هناك مكان لهمومنا وهي تذوب في هموم الآخرين.!

وهو سر السعادة الذي تبينه السعداء القدامى والفاقهون في معاني السرور من أمتنا.

قال ابن المنكدر: (لم يبق من سعادة الدنيا.. إلا قضاء حوائج الإخوان)

وقيل له: أي الأعمال أفضل؟ قال: (إدخال السرور على المؤمن)

وقال الحسن: لأن أقضي حاجة لأخ أحب إلى من أن اعتكف سنة.!)[1]

وكان ابن عباس يقول: (صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متكأً..!)[2]

ومنه قول الرسول ﷺ: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)[3]

ولقد عرِف (حسن البنا) رحمه الله طريق السعادة الحقيقية وأرشد إخوانه وعموم المسلمين إلى هذا الطريق الذي تَبَينه منذ صباه، ومنذ أن كان طالباً بدار العلوم فوضحت غايته، وعرف طريقه، ونذر نفسه للناس، وخير الناس، وإرشاد الناس.! بيّن ذلك كله في موضوع الإنشاء الذي طلب

[1] - المجالسة وجواهر العلم للدينوري
[2] - عيون الأخبار لابن قتيبة (١ /٣٣٩)
[3] - رواه الطبراني وغيره، وصححه الألباني

منه أن يكتبه في امتحان التخرج من دار العلوم، وكان موضوعه: (اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التي تعدها لتحقيقها).

فأجاب بقوله: (أعتقد أن خير النفوس.. تلك النفس الطيبة التي ترى سعادتها في إسعاد الناس وإرشادهم، وتستمد سرورها من إدخال السرور عليهم، وذود المكروه عنهم، وتعد التضحية في سبيل الإصلاح العام ربحًا وغنيمة، والجهاد في الحق والهداية – على توعر طريقهما، وما فيه من مصاعب ومتاعب –راحة ولذة، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها، وتتغلغل في مظاهر المجتمع، فتتعرف ما يعكر على الناس صفاء عيشهم، ومسرة حياتهم، وما يزيد في هذا الصفاء، ويضاعف تلك المسرة، لا يحدوها إلى ذلك إلا شعور بالرحمة لبنى الإنسان، وعطف عليهم، ورغبة شريفة في خيرهم، فتحاول أن تبرئ هذه القلوب المريضة وتشرح تلك الصدور الحرجة، وتمر هاته النفوس المنقبضة، لا تحسب ساعة أسعد من تلك التي تنقذ فيها مخلوقًا من هوة الشقاء الأبدي أو المادي، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة.

وأعتقد أن العمل الذي لا يعدو نفعه صاحبه، ولا تتجاوز فائدته عامله، قاصر ضئيل، وخير الأعمال وأجلها، ذلك الذي يتمتع بنتائجه العامل وغيره، من أسرته وأمته وبنى جنسه، وبقدر شمول هذا النفع يكون جلاله وخطره، وعلى هذه العقيدة سلكت سبيل المعلمين، لأني أراه ساطعا يستنير به الجمع الكثير، ويجرى في هذا الجم الغفير، وإن كان كنور الشمعة التى تضئ للناس باحتراقها)[1]

هذا ما وعاه أحد المجددين في القرن العشرين في صدر شبابه ويفاعته المبكرة، فلما كبر.. ظلت الغاية هي الغاية والفكرة هي الفكرة، والإيمان هو الإيمان، ولم يكن هناك من فرق إلا أن الإيمان بها أصبح أشد وأقوى، فكان حب الناس هو الغاية التي يوجه إليها الناس، وكان التفاني في خدمتهم هي الدعوة التي يوجه إليها أصحابه فكان يقول لمريديه:

(هل أنتم مستعدون أن تجوعوا حتى يشبع الناس.؟!

وأن تسهروا حتى ينام الناس.؟!

[1] مذكرات الدعوة والداعية- للإمام حسن البنا

وأن تتعبوا حتى يستريح الناس.؟!

وأخيرًا أن تموتوا كي يحيا الناس.!)

وكان يقول: كونوا كالشجر يرميه الناس بالحجارة فيرميهم بالثمر.!

إن الدراسات الحديثة أظهرت أن طيبة الإنسان في التعامل مع الآخرين، يمكن أن تكون سببًا لسلامته النفسية والبدنية، بل يمكن أن تُطيل عمره وأيامه، ففعل الخير يكون له أثر على المنظومة العصبية التي تتحرك بموجبها آليات الدماغ، فحين نبيح لأنفسنا فعل الخير للآخرين ، فإننا نفتح في الحقيقة سبلا عصبية تنعش مشاعر الرضا في النفس، فيتدفق هرمون (الأندورفينز) ليرفع من أداء الناقلات العصبية التي يحتاجها التفكير الذكي، وأظهرت كذلك أنّ الناس الذين يميلون بانتظام إلى إسداء فعل الخير والطيبة للآخرين، معرضون لاحتمال الموت بنسبة أقل ممن لا يفعلون الخير، وذلك على امتداد فترة لا تقل عن خمسة أعوام مقبلة، واحدة من أكثر المسائل إثارة في هذا البحث، هي أنّ من وقع عليهم فعل الخير، لم يتحسن أداؤهم العمري أسوة بفاعلي الخير، وهكذا انحصرت فائدة الطيبة على هذا المستوى بفاعلها دون المتلقي لها.!

فعل الخير يجعلك أكثر سعادة، إن لم تدفعك كل الأسباب أعلاه لبذل الخير والطيبة مع العالم وكائناته، فهذا العامل يمكن أن يحثك على الطيبة وهو: (فعل الخير في الحقيقة يجعلك أكثر سعادة)، وكشفت دراسة أخرى صدرت عن جامعة (بنسلفانيا) عن (أثر رسالة شكر كُتبت باليد وسُلمت شخصيا إلى إنسان لم يشكره أحد قط لأفعاله الخيّرة، الدراسة كشفت أنّ من أقدموا على هذا العمل، ظهرت عليهم آثار سعادة مفاجئة مفرطة استمرت معهم لمدة شهر.

خلاصة القول: إن فعل الخير مفيد لنا كما هو مفيد لمن يقع عليهم، وهو عادة يمكن تطويرها في أيّ مكان وزمان دون أن تكلف شيئًا أو بكلفة زهيدة لا تذكر.)[1]

كما أجريت بعض الأبحاث العلمية على عدد كبير من المرضى قبل وبعض مشاركتهم في الأعمال التطوعية الخيرية التي أقيمت لمساعدة الآخرين بالخدمات أو بالمال، وكانت النتيجة مفاجأة كبيرة، فإن كثير من أولائك المرضى تحسنت أحوالهم الصحية بصورة إيجابية وملحوظة، حتى

[1] - في تقرير منشور بمركز dw الإعلامي

أنهم لمسوا هذا التحسن بأنفسهم وصرح بعضهم أنه لم يشعر بهذه السعادة من قبل، وعلى إثر ذلك صدر تقرير طبي يدعم هذه النتيجة علمياً حيث كتب الطبيب: (إن النفس البشرية تشعر بسعادة كبيرة عند تقديم المساعدة للآخرين حيث يفرز الدماغ مادة (الدوبامين) التي تؤدي إلى الإحساس بنشوة المساعدين وهي حالة نفسية منعشة يشعر بها الإنسان العادي وتساعد المريض على الشفاء.)

وهذه السعادة والنشوة الغامرة التي لفت إليها التقرير، جعلها ديننا من صميم تعاليمه وأراد لأتباعه أن يعيشوها ويلمسوها في حياتهم الاجتماعية ، حيث يقول ﷺ:

(ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يقضيها ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام)[1]

وقال أيضاً: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه..) [2]

ويواصل العلم الحديث دوره في تأكيده للحقيقة التي نوه بها ديننا.. فقد توصلت دراسة لبعض العلماء إلى بعض العوامل القادرة على حل معضلة السعادة، وإظهار العناصر التي تولد الفرح لدى الإنسان، فبعد متابعة ردود أفعال الأمهات على شريط فيديو بث على برنامج (أوبرا) التلفزيوني، وجدوا أن التواصل والتعاطف بين البشر يقوي من هرمون (الأوكسيتوسين) ويُفعِل من آثار العصب الرئوي المعدي المحفزين للسعادة، والذي يفرز أثناء الاجتماع واللقاء مع الأحبة، كما أنه مرتبط بحالات الشعور بالثقة والوفاء، ولاحظت الدراسة أن عملية التطوع لخدمة الآخرين من شأنها أن ترفع من معنويات البشر، وتشعرهم بنوع من الرضا الشخصي عن ذاتهم، بحيث تشتد هذه الظاهرة وقت الأزمات.

وإذا كانت السعادة في خدمة الآخرين أكيدة وموفورة إلى هذا الحد، وبتأكيد العلم والدين، فلماذا لا نجعل حياتنا كلها سعيدة هانئة؟! لماذا لا نشحن أيامنا كلها بوقود السعادة، فلا نقضي ليلاً أو نهارًا إلا ويكون لخدمة الآخرين فيه نصيب كبير.؟! هناك أقوام كانوا لا يعدون من أعمارهم إلا

[1] - البيهقي وابن ماجة
[2] - رواه مسلم

تلك الأوقات التي عاينوا فيها الفرحة والسعادة، فهي وحدها أعمارهم أما ما دونها فلا ينتسب إليهم.!

وما أروع خيال الأدباء حينما نسج أحدهم قصة لمهاجر عربي، هاجر إلى أمريكا الجنوبية في القرن العشرين فاحتفل به أقاربه الذين سبقوه إلى المهجر وطافوا به شوارع المدينة التي يعيشون فيها فقادتهم أقدامهم إلى مقابرها، وأعجب المهاجر الجديد بجمال المقبرة وشواهدها الرخامية الثمينة، لكنه لاحظ خطأ شائعاً في بياناتها جميعاً، فكل شاهد منها يحمل عبارة من هذا النوع: فلان الفلاني ولد عام ١٨٦٠ ومات عام ١٩٣٠ وعمره عشرون سنة! أو =: فلان الفلاني ولد عام ١٨٧٠ ومات في عام ١٩٤٠م وعمره خمسون عاماً! وهكذا.! فلفت أنظار أقاربه إلى هذه الأخطاء في حساب الأعمار فضحكوا منه وقالوا له: إنه لا خطأ هناك.. لأن الناس في هذه المدينة لا يقدرون عمر الإنسان بما عاشه من سنوات من مولده إلى رحيله، وإنما بما عاشه من لحظات السعادة وهكذا، فقد يكون عمر الإنسان مثلاً ٧٠ عاماً لكنه لم يعش فعلا سوى عشرين سنة، وقد يكون عمر آخر ٦٠ عاماً لكنه عاش ٥٠ سنة من السعادة، فيكون أطول عمراً من الأول بحساب السعادة وليس بحساب السنين، وأُعجب المهاجر الجديد بالفكرة، وكان في الأربعين من عمره، فتأملها طويلاً ثم تنهد بأسى بالغ وقال لرفاقه: إذا مت اليوم أو غداً فأرجو أن تكتبوا على قبري هذه العبارة: جبر من بطن أمه إلى القبر.! أي أنه لم يعش يوماً واحداً سعيداً منذ ولد، وكأنه يردد مقولة أحدهم: (لو كانت الدنيا تقاس بلحظات السعادة، فاكتبوا على قبري: مات قبل أن يولد)

ويوجه (سلامة موسى) نداءه للشباب ويرشدهم إلى طريق السعادة ومعناها الحقيقي فيقول:

(كثير من الذين لا يتعمقون في معرفة الدنيا وفهمها يظنون أن السعادة في الملذات والشهوات، ولكننا لا نطلب هذه السعادة لأنها في صميمها حيوانية، لأن سعادة الرجل الناضج هي كفاح إنساني يغمر شخصيته، ويبعثه على النشاط، ويربطه بالمجتمع، ويجعله يحس بأنه عضو نافع، وهناك أنواع كثيرة من هذا الكفاح، فإن الشاب الذي يدرس علمًا أو فنًّا هو مكافح، وكذلك الذي يدرس السياسة وينتهي إلى برنامج للإصلاح هو أيضًا مكافح، وكلا هذين يجد أن العمر قصير في هذا الكفاح؛ ولذلك لا يمكن أحدهما أن يسأم أو ينحرف أو أن يسقط.

ولكن هناك أيضًا ميادين أصغر، فإن الانتماء إلى جمعية خيرية لتربية اليتامى أو مساعدة الأرامل أو تعليم العميان، يملأ القلب كرامة والعقل تفكيرًا ويُكبر الشخصية، إن الواقع أن الإنسان لا يكبر إلا إذا تجاوز ذاته، ونزع من الأثرة إلى الإيثار؛ أي خرج من نطاق الأنانية الفردية، إلى نطاق الغيرة الاجتماعية، وهذا هو الذي يجعلنا نعجب بالفدائيين، ونعجب بالشجاعة والشهامة، لأن هاتين الفصيلتين تعنيان الإقدام والتضحية بالذات في سبيل غير اللذات، أي تعنيان الإيثار، وليست الأمومة في جمالها سوى هذا الإيثار الذي يشع منها، حين تجوع الأم كي تشبع طفلها، وليس الحب في روعته سوى هذا الإيثار الذي يؤثر به كل من المحبين الآخر، وليست الجندية سوى إيثار الشعب على أشخاصنا، ولن نحس السعادة الداخلية العميقة إلا حين نؤثر على أنفسنا، يجب على كل شاب أن يؤثر على نفسه، يؤثر الوطن أو الإنسانية أو الشرف أو الخير.

وذلك بأن يخدم ويتعب لغيره ، فيحاول أن يرفع ظلماً أو يصل إلى هدف شريف، أو يحقق برنامجاً سياسياً أو اجتماعياً يعتقد سداده، أو يعول يتيماً أو يكافح استعماراً أو يتصدى لاستبداد ، وهكذا الخدمة الإيثارية، هي التي تكسبنا السعادة وتجعلنا نحس القيم الروحية العليا التي نحيا بها على المستوى الرفيع، والشاب الذي يحس هذه القيم يحس أيضاً كرامة شخصية، ترفعه عن الدنيا وتحمله على أن يلتزم الفضائل السامية، وعندئذ تستحيل هذه الخدمة الإيثارية خدمة ذاتية، أي أن الشاب ينفع نفسه حين ينفع غيره؛ ذلك أننا نرتفع ونعظم حين نأخذ بالدفاع والعمل في شأن اجتماعي عظيم)[1]

أحب الناس إلى الله

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس) [2]

وقال أيضا: (الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[3]

[1] - مشاعل على الطريق للشباب- سلامة موسى

[2] - أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب قضاء الحوائج (ص ٤٧، رقم ٣٦) وحسنه الألباني (صحيح الجامع، ١٧٦)

[3] - رواه الطبراني

ومعنى عيال الله حسب قول الشراح أي فقراء الله.. فالخلق كلهم فقراء إلى الله، وهو الذي يعولهم وقيل: هو كلام على المجاز والتوسع، كأن الله لما كان المتضمن بأرزاق العباد والكافل بهم .!

وقد قيل:

الخلق كلهم عيال الله تحت ظلاله ** فأحبهم طرًا إليه أبرهم لعياله

وقيل:

وخير عباد الله أنفعهم لهم **رواه من الأصحاب كل فقيه

وإن إله العرش جل جلاله **يعين الفتى ما دام عون أخيه

ومما ينسب للشافعي رحمه الله:

وأفضل الناس ما بين الورى رجـل

تقضى على يـده للنـاس حـاجـات

لا تمنعن يـد المعـروف عـن أحـد

مـا دمـت مقتدرًا فالسـعد تـارات

واشكر فضائل صنع الله إذا جعـلت

إليـك لا لك عنـد النـاس حـاجـات

قـد مات قـوم وما ماتت مكـارمهم

وعاش قـوم وهـم فى الناس أموات

وقال ابن القيم رحمه الله في كتاب (الروح):

"والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله وإذا كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذة لبن وكسرة خبز فكيف بمن ينفعهم في حال ضعفهم وفقرهم وانقطاع أعمالهم؟"

وهذا النفع الذي تسديه للناس لا يقتصر على النفع المادي فقط، ولكنه يمتد ليشمل النفع بالعلم، والنفع بالرأي، والنفع بالنصيحة، والنفع بالمشورة، والنفع بالجاه، والنفع بالسلطان، ونحو ذلك، فكل ما استطعت أن تنفع به إخوانك المسلمين فنفعتهم به، فأنت ضمن من يحبهم الله تعالى..

وأي غاية في الدنيا يبتغيها العبد بعد حب الله له؟!

إنها المنزلة التي ما بعدها منزلة..بل إنها الدرجة الرفيعة التي أشار إليها حبيبنا ﷺ فقال : "إن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض"[1]

وقال: (والله لا يلقى حبيبه في النار)

وياها من منظومة تتبع بعضها بعضاً ، فإذا نفعت الناس أحبك الله، وإذا أحبك الله أحبك أهل السماء ووضع لك القبول في الأرض، وإذا أحبك الله لا يعذبك أبداً..وكثيرًا ما كان الصحابة يدفعهم ذكاؤهم أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فكان رسول الله ﷺ يدلهم على الطريق ويقول لسائلهم: (أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم) [2]

وتذكر معي كيف فرح الصحابة رضوان الله عليهم حينما صدرت التوبة الإلهية على الثلاثة الذين خلفوا، وأسرع الصحابة يبشرونهم بالفرج وانكشاف الكرب، وهم أحدهم بكل قوته ليبشر كعباً بعفو الله عنه وصدره يمتلىء حبًا وفرحًا وسرورًا، حتى إنه لم ينتظر حتى يصل إليه، وبدأ ينادي من بعيد بأعلى صوته من على الجبل: يا كعب بن مالك أبشر.. يقول كعب: وكان الصوت أسرع من الفرس، فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج، ولما أعلنت التوبة في المسجد جاء الناس يبشرونه وصاحبيه..

وقال له ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك) ..فانظر إلى ذلك البشر والسرور الذي غمر النبي ﷺ وصحابته بعد علمهم بالخبر.!

يقول ﷺ: (من مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام)[3]

أي ثبت الله قدمه يوم القيامة على الصراط، الذي هو مدحضة مزلة، أرق من الشعر، وأحد من السيف، وعلى جنبتيه كلاليب وخطاطيف، تتخطف الناس.

[1] - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٩).
[2] - أخرجه الطبراني
[3] - أخرجه الطبراني في الأوسط وابن أي الدنيا في قضاء الحوائج وحسنه الألباني

وله عن أنس ﷺ قال صلى الله عليه وسلم: (مَن لَقيَ أخاهُ المُسلِمَ بِما يُحِبّ لِيَسُرَّهُ بِذلك ، سَرّهُ اللهُ عزّ وجَلّ يومَ القِيامةِ)[1]

وإذا كان السرور الذي تدخله على المسلم من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فاحذر من نقيضه حينما تكون مصدر إزعاج وشر وهم وغم للمسلمين.. اجتهد أن تفرح كل القلوب حولك..ت فرحهم ولو بالكلمة، ولو بالبسمة، كن عونا لهم حتى يكون الله في عونك، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة)[2].

ياالله.. النجاة من كرب الآخرة وهولها أصبح طريقاً سهلا ميسوراً؟! هذا الهول الذي يعيش الإنسان كل حياته وهو يعمل له ألف حساب ويتوخاه ويحاذره.! هذا الهول الذي وصفه الله تعالى بقوله: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) [3]

وقال تعالى: (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا)[4]

رغم كل هذا.. ومع كل هذا.. يخبرنا رسول الله ﷺ بالطريقة السهلة الميسورة في التحسب من هذا اليوم العصيب، والتحصن مما فيه من هول وبلاء..

جاء (علي بن أبي طالب) ﷺ وهو باب مدينة العلم ليفسر قوله تعالى: (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) فقال: (عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمُ الْخَيْرَ)[5]

وحينما يريد العبد من الله تعالى أن يعينه ويكون في حاجته، فما عليه كذلك إلا أن يدعو ربه أو يتجه إلى حاجات الناس فيقضي منها ما استطاع، حتى يقضي الله أمره.. وهو الذي أشار إليه الرسول الكريم في قوله: (إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[6]

---

[1] - رواه الطبرانيّ في الصغير
[2] - رواه مسلم
[3] - الحج:١-٢
[4] - المزمل:١٧-١٨
[5] - رواه البيهقي
[6] - رواه مسلم وغيره

وقال: (إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه)[1] أي فأعطوه

فعلى العاقل أن يستعين على قضاء حاجة نفسه، بقضاء حوائج المسلمين، فإنه من سعى فيها سعى الله في حاجته، فأيهما خير لك إذن.. أن تسعى في حاجة نفسك أنت، أم يسعى الله تعالى القوي القادر الذي بيده مقاليد السموات والأرض في قضاء حاجتك.؟!

لقد فضل الله تعالى خدمة الناس على بعض الطاعات والعبادات، فعن أنس ﷺ قال: كنا مع النبي في سفر، فنزلنا منزلاً في يوم شديد الحر، أكثرنا ظلاً من يستظل بكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، وكان منا الصائم ومنا المفطر، فنزل الصائمون، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركائب، فقال النبي كما في الصحيحين: (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) لأنهم كانوا يخدمون الصائمين من إخوانهم فقضوا حاجتهم وسعوا على راحتهم.

ولله در القائل:

اقض الحوائج ما استطعت ** و كن لهم أخيك فارج

فَلَخَير أيام الفتى ** يوم قضى فيه الحوائج

نعم ..هذه هي خير أيام الفتى، لأنها اللحظة التي يرد فيها الجميل، ويشكر فيها النعمة، وهي الطريقة التي يضمن بها بقاء هذه النعمة ودوامها عنده، ولذلك قال النبي ﷺ: (إن لله تعالى أقوامًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويثبتها عندهم ما نفعوهم، فإذا هم لم ينفعوهم حوّلها إلى غيرهم) [2]

وعلى العكس.. أسوق إليك هذا الدرس القاسي لأناس حرموا عباد الله فحرمهم الله تعالى، وما حرمهم الله إلا لأنهم بعدوا عنه وما بعدوا عنه إلا حينما بعدوا عن عباده الفقراء المساكين.!

هل تعلم من هؤلاء؟ إنهم أصحاب الجنة، من قص الله خبرهم، وضرب المثل بهم، لعظم عملهم، ليكون لنا فيهم عبرة، وليتعظ بهم كل بخيل أراد حجب ما في يده عن الناس، فلا يرق لجوعان، أو يعطف على فقير مسكين محتاج..

إنهم لم يظلموا أحداً، ولم يعتدوا على أحد.. وإنما كانت جريرتهم أن منعوا الخير، وحرموا المساكين.! أولئك هم أصحاب الجنة، الذين ضربهم الله تعالى مثلاً وعبرة لكل بخيل قتار فقال:

[1] - شمائل الترمذي

[2] - رواه الطبراني وحسنه الألباني

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ، عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ، كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[1]

ويح أهل مكة.. لقد كان أهل الثراء والنعمة منهم، رغم كثرة مالهم، لا يكرمون اليتيم، ولا يحضون على طعام المسكين، ولا يجعلون في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، بل كانوا يحتقرون الفقراء، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم حيثما وَجدوهم، وكانوا يستنكفون أن يجلسوا مع النبي ﷺ وفي مجلسه واحد منهم، وقد طلبوا منه مراراً أن يجعل لهم يوماً، وللفقراء يوماً، ولأجل هدايتهم.. همّ النبي ﷺ بذلك..!ولكن الله سبحانه يرده عن ذلك ويأمره أن يصّبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ابتغاء وجهه..وجاءت الآيات تقرع آذانهم بهذا المثل الصارخ، لمن يبخلون على الناس ويزدرون الفقراء ، لتكون العبرة ماثلة أمامهم، يشاهدوا سنة الله في الناس ، فيعودوا إلى أنفسهم ويتفكروا في غباء صنيعهم.

فمن هم أصحاب الجنة؟ وما قصتهم؟

كانت قرية باليمن يقال لها: (ضروان) بالقرب من صنعاء، كان فيها رجل صاحب جنة عظيمة، قسمها وجعلها بينه وبين الفقراء، يأخذ منها ما يكفيه، وتزكوا نفسه سامحة بسائرها للفقراء، وكان لهذا الرجل ثلاثة من الأولاد، ورثوا جنته، حين توفي عنهم وزادهم الله بسطة وسعة في الرزق، ولكنهم لم يسيروا على سنة أبيهم، إذ بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ومنعوا الفقراء والمساكين حظهم من هذه الجنة.

[1] - القلم: ١٧-٣٣

وقيل: كان منهم فتى عاقل صالح، دعاهم إلى البذل والعطاء، فلم يستمعوا لنصحه، واتفق الفتيان على حرمان الفقراء والمساكين، وأقسما على ذلك وحملا أخاهما قسراً على أن يخضع لرغبتهم، فيقسم معهم، ففعل وهو كاره، وبينما هم نائمون طاف على الجنة طائف من ربهم فأحرقها، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا انطلقوا إلى جنتهم ليقطعوا ثمارها، وتواصوا ألا يدخلها اليوم عليهم مسكين.. وانتهى أصحاب الجنة إلى مكان جنتهم فوجدوه يبابا حالك السواد.! فقالوا في نفس واحد: (إنا لضالون) أي: إنا لمخطئون في ارتياد هذا المكان، فليس هو المكان الذي فيه جنتنا؛ وذلك لشدة المفاجأة، وهول الصدمة، ولكن ما لبثوا أن رجعوا إلى صوابهم وأدركوا عاقبة بغيهم، فقالوا بلسان الحال والمقال: (بل نحن محرومون)

إنه كيد الله بمن كادوا لعبيده.!

وأمثال هؤلاء من أصحاب القلوب القاسية على الناس، كيف لهم أن يردوا على الحق تعالى يوم القيامة حين يسألهم.. ففي الحديث: (يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! فيقول عز وجل: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟!)[1]

(يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة، أن يدفع ضرورته، فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة، أو إلى التبردة، وجب عليه أن يقضى حاجته، ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها.. حتى أن أهل العلم يقولون:

لو اضطر الإنسان إلى طعام في يد شخص أو إلى شرابه، والشخص الذي بيده الطعام أو الشراب غير مضطر إلى هذا الطعام أو الشراب، ومنعه بعد طلبه، ومات هذا المضطر، فإنه يضمن؛ لأنه فرط في إنقاذ أخيه من هلكه)[2]

حتى الخطوة التي تخطوها في قضاء حاجة أخيك، يقدرها الله تعالى ويضاعف أجرها لك.! قال رسول الله ﷺ: (من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ومحا عنه

[1] - رواه مسلم عن أبي هريرة
[2] - شرح رياض الصالحين لابن عثيمين جـ٢ صـ ٩٦ جـ الإيمان

سبعين سيئة إلى أن يرجع من حيث فارقه، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإن هلك فيما بين ذلك دخل الجنة بغير حساب)[1]

و ذم الرسول ﷺ من يأخذ أجراً أو يتقاضى أُجرة مقابل أن يؤدى خدماته للناس، أو يُسهل لهم الأمور العسيرة لدى مسئول أو حاكم ..

حتى عدّ أخذ الأجرة والمقابل من الكبائر.

فعن أبى أمامةرضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: (من شفع شفاعة لأحد، فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر.)[2]

فالشفاعة لله بلا انتظار شئ يُعطى، فإذا سعى الإنسان في قضاء حاجة لأخيه فقدم له هديه وقبلها ..كان قبوله لما أعطى كبيرة يحاسبه الله على ذلك حساباً عسيراً، ولا ثواب له في شفاعته السابقة، وحسبك قول النبي ﷺ:(اشفعوا فلتؤجروا)

قيل: (وفيه الترغيب في قضاء حوائج ومصالح الناس)

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: "واستخدام المرء جاهه لنفع الناس، ومنع أذاهم.. ينبغي أن يتم في حدود الإخلاص والنزاهة، فإن فعل ذلك لقاء هدية ينتظرها، فقد أجره عند الله وأكل بعمله السحت"[3]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من كان وصله لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر، أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام) [4]

بهذه الصورة المشرقة التي أرادها الرسول ﷺ للمجتمع المسلم.. تتحقق القوة للمسلمين، فلا تعبث ببقائه صور الضعف والفناء، لأن قواعده صُلبة تقوم على الحب والرحمة والرفق والمودة، ومحبة الخير للناس أمر واجب في الإسلام على كل مسلم، ولازم لصدق الإيمان، وأثر للعقيدة السليمة النقية، ولذلك قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[5]

[1] - رواه ابن أبى الدنيا والهيثمى
[2] - رواه ابو داوود
[3] - خلق المسلم لشيخنا محمد الغزالي
[4] - صحيح ابن حبان
[5] - رواه البخاري ومسلم

قال الصنعاني "لا يكمل إيمانه، بل يكون ناقصاً"

خدمة الناس عبادة

في صدر شبابي كثيرًا ما كنت أدعو الله سبحانه وتعالى أن يمن علي بعمل ترضاه نفسي، ففي ظل البطالة المتفشية والفراغ القاتل الذي منيت به أجيالنا، كان من الممكن أن يُقبل الإنسان بأي عمل مهما كان مهيناً حقيراً، وكان هناك صراع كبير بين الواقع المؤلم وبين طموحاتي النفسية، التي أفرزتها عوامل بيئية تربوية نشأت فيها، فمن خلال الصورة الإجتماعية التي أحاطتني كنت أرى نفسي شيئاً كبيراً ولا يجب أن أكون إلا شيئاً كبيراً.. لكن الأيام تتوالى لأرى نفسي معها خلاف ذلك، وأن البطالة والضياع ينتظران البقية الباقية من عمري ليعبثا بها.!

ولكن فضل الله علي كان كبيرًا، فاستجاب دعائي ورجائي فعملت في أشرف الميادين، وأكرم الهيئات، وقضيت وقتي وبذلت جهدي في العمل الخيري والدعوة إلى الله تعالى، وأصبح هذا العمل ليس مما ترضاه نفسي فحسب، وإنما مما يرضاه الله ويرتضيه، ويخص به أهله وذويه، وكثيرًا ما كنت معجباً بقول القائل: (إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك)

وفي يوم من الأيام تجاذبت أطراف الحديث مع والدي رحمه الله، واستعدت بعض الذكريات المؤلمة، وكان مما قلت له: لقد استجاب الله دعائي حينما كنت أدعوه فأقول: اللهم ارزقني بعمل ترضاه نفسي، فقال لي والدي: ولكني كنت أدعو لك بدعاء غير ذلك وكنت أقول: اللهم ارزقه بعمل يرضيك ويرضينا.!

وهنا سرى في خاطري ما غاب عن إدراكي.. فليس الصواب أن ترضى نفسي عن العمل، ولكن الصواب أن يرضي الله تعالى أولاً وأخيراً.. وشعرت بوخذة في نفسي حينما غاب هذا المعنى عن ضميري، وعلمت أن دعوة أبي أصابتني وفي الصميم، فليس في الدنيا أجمل من أن تكون في خدمة الآخرين؛ لأنه أفضل الأعمال التي ترضي عنك ربك سبحانه، وهي الفضيلة التي أقرها ديننا وجعلها من صور العبادة التي يُثاب عليها صاحبها.

ودائماً ما كنت أتمثل حديث الإمام المجاهد (سعيد النورسي) حينما التقى بالرعاة في السهول الخضراء وهم يرعون حيواناتهم في مروج بين الجبال والوديان والسهول، يلاطفهم ويقول لهم: إنكم إذا ما أديتم الصلاة في أوقاتها الخمسة خلال اليوم فإن اليوم بكامله يصير بمثابة عبادة لكم، لأنكم برعيكم هذا تقدمون خدمة كبيرة للبشرية؛ فإن انتفاع بني البشر من أصوافها ولحومها وحليبها وألبانها هو بحكم الصدقة لكم.

وكان ابن عباس معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: (يا فلان، أراك مكتئباً حزيناً، قال: نعم يابن عم رسول الله، لفلان على حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه! قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ قال: إن أحببت؟ قال: فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب –ودمعت عيناه– يقول: من مشى في حاجة أخيه، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين)[1]

وفي رواية: (كل خندق أبعد مما بين الخافقين)!

ما أعظم فهم ابن عباس رضي الله عنهما لحقيقة الإسلام وروح الدين، لقد آثر أن يترك الاعتكاف هذه العبادة العظيمة وفي أشرف الأمكنة، مسجد الرسول ﷺ الذي يتضاعف فيه الأجر والثواب بألف مرة فوق غيره من المساجد الأخرى.!

آثر ابن عباس أن يترك الذكر والدعاء والصلاة والخشوع وقراءة القرآن.!

لماذا؟ وهل هناك أعظم من هذه المظاهر التعبدية؟

نعم، إنها خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم خير من الاعتكاف سنوات وسنوات.!

وهو ما وعاه (الحسن البصري) وأدركه، وعاب فيه على (ثابت البناني) حينما بعث إليه قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: (مروا بثابت البناني فخذوه معكم فأتوا ثابتاً فقال: أنا

[1] - البيهقي

معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة، فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم)[1]

إن ثابتاً قام للصواب، وهرول لخدمة أخيه المسلم، مستجيباً لتذكرة الحسن غير مجادل أو مكابر، وهكذا كانت أخلاق السلف.

وليحذر فاعل الخير، ومعين الناس، أن يمارس هذه العبادة العظيمة، قبل أن يصحح فيها نيته، ويحرر قصده، فلا تشرع فيها ومقصدك ثناء الضعفاء، والرغبة فيما يذيعونه عنك بين الناس، لا تُعينهم بمالك ليقول الناس عنك: إنك خيّر معطاء، فإن لم تصحح النية، فلا قيمة عند الله ، لهذا الصنيع الذي يتحول من العبادة إلى فضيلة تأخذ عليها أجرك من المجتمع، الذي يمدحك ويثني عليك ، قال ﷺ فيما جاء عن رب العزة سبحانه: (من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته له كله)

"إن كل عمل اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات، مادام قصد فاعله الخير، لا تصيد الثناء، واكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضى به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدى حائراً، أو يعلم جاهلاً، أو يؤوى غريباً، أو يدفع شراً عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعاً إلى ذي كبد رطبة، فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية)[2]

كم أغبط هذا المسلم الذي جعل الله تعالى عمله في ميدان الدعوة، فهو يقضي عمره ويفني أوقاته، ترغيباً في الإسلام ودعوة إلى فضائله، وأكثر منه هذا الذي يدعو إلى ربه، لكنه مهموم بخدمة الناس ويعمل في تيسير أمورهم، ويالها من لحظة ممتعة، حينما يفارقني المتعثر بعد أن أزال الله تعالى كربه وعسره على يدي، ولسانه يلهج بالدعوات الصالحة، يسأل ربه أن يمنحني الخير والبركة، ويملأ قلبي بالسعادة والسرور، إن هذه الدعوات أحب إلي من الدنيا وما فيها، وأثمن في وجداني من الكون كله، وحينما أذهب لنومتي أشعر بقلب يفيض سعادة ونشوة كبيرة، ولا أرى غضاضة إن باهتني الموت بعد أن حققت سعادة الآخرين.

[1] - جامع العلوم الحكم لابن رجب الحنبلي
[2] - الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف د/يوسف القرضاوي

يقول شيخنا الغزالي: (إن بعض المتدينين يفرقون بين صور العبادات المأثورة، وأداء الأعمال المدنية المختلفة، الأولى عندهم دين، والأخرى ليست عبادة إلا على ضرب من التجوز، رأيت بعضهم على مكتبه جالساً بادي السآمة، يجيئه الناس لحاجاتهم فيرجئ ما يشاء، ويهمل ما يشاء، حتى إذا اقترب وقت الظهر، شرع يستعد له قبل الأوان، قلت له: إن ما تقوم عنه ليس بأهون مما تقوم له.. ونشاطك في إنجاز مصالح الناس في أقصر وقت، وعلى أحسن وجه دين، وهو واجب كالصلاة والصيام! قال: إننا نستعد للصلاة المكتوبة، وسنؤدي عملنا بعد أداء حق الله! قلت: جميل أن تحرص على الصلاة في وقتها، ولا عليك أن تصليها أول الوقت أو وسطه! وخير لك أن تعجل بإنجاز عمل هذا القادم من بلده القلق على مصلحته، خاصة وأن الصلاة تربى الإنسان على الشعور بالواجب ولا تستغرق من الزمن أكثر من بضع دقائق معدودة" [1]

روى البخاري بسنده عن (معاوية بن قرة) قال: كنت مع (معقل المزني) فأماط أذىً عن الطريق فرأيت شيئاً فبادرته فقال: ما حملك على ما صنعت يابن أخي؟قال: رأيناك تصنع شيئًا فصنعته قال: أحسنت يابن أخي :سمعت النبي ﷺ يقول: (من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة)[2]

إن خدمة الناس، وكف الأذى عن البشر في نظر الإسلام، لا تقل عن نظرته لأنواع العبادات كالزكاة والصلاة والذكر وما ماثلها، ثم وإنها من أرفع العبادات، لأنها تعكس حالة هذه النفس التي أُجهدت وحَرمت نفسها من الراحة لأجل راحة الغير، وهو مشهد عظيم، لا يتم إلا لنفس روضت واقعها بكثير من المجاهدات والرياضات النفسية، حتى صفت من معالم الرزيلة، وتشبعت بمعرفة الله تعالى، إنه طريق لا يسلكه إلا من أراد الله به الخير، لأنه فهم نير لمقاصد الدين، وأنت قد رأيت كيف غابت عن (ثابت البناني) وهو العابد الزاهد حتى فهّمه الحسن البصري، ولكن، ما أكثر القاصرة أفهامهم، يعكفون ليل نهار في المحاريب يتعبدون ويذكرون ويصومون، ويعزفون عن خدمة الناس ونفعهم، وهؤلاء لم تتطهر نفوسهم بهذه العبادة الصارمة، إنهم مازالوا عند حظوظ أنفسهم مقصرين في محبة الله، لأنهم قصروا في محبة خلقه.

[1] - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: محمد الغزالي.
[2] - حديث حسن - انظر صحيح الجامع للألباني

و عن (أبى قلابة) أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً، قالوا ما رأينا مثل فلان قط :ما كان في مسير إلا كان في قراءة ، ولا نزلنا منزلا إلا كان في صلاة قال :فمن كان يكفيه ضيعته – حتى ذكر– :وكان يعلف دابته أو جمله ؟ قالوا نحن .قال: فكلكم خير منه.)[1]

إن تقدير الصحابة لأخيهم عظيم ، لأنه بلغ القمة في العبادة ، ونال درجة طالما راودت خيالهم..لقد كان يومه موصولاً بالذكر والصلاة، ولكن الرسول ﷺ يتدخل ليصحح مفهوم العبادة في الإسلام..لقد حكموا عليه، ورفعوا قدره لمكانةٍ كبيرة ، حتى جاءهم سؤال الرسول المعلم ﷺ: (من كان يكفيه ضيعته؟) -أي يتكفل معاشه- فلما أجابوا، تغيرت الصورة تماماً، وكانت كما عبر عنها شيخنا الدكتور (محمود عمارة) رحمه الله بقوله:

"أنزل الرسول ذلك العابد من قمته التي اقتعدها، ليقيم عليها من قضوا حوائجه.! وإن كانوا أقل منه ذكراً! مُفضلاً خدمة الناس على العبادة المحضة التي لم تحقق ثمارها.. جاعلاً جزاءها أعظم أنوع الجزاء.!"

ويحكي بعض أعلام الدعوة، أن بعض إخوانه كان في رحلة، وفي ليلة من الليالي استيقظ بعد منتصف الليل، فتوجه للوضوء ليصلى ما يكرمه الله به، وإذا به بعد الانتهاء من الوضوء، يرى ملابس إخوانه قد ملأت سلة ملابس المغسلة، ولعدم وجود وقت للراحة، كان هذا الكم من الملابس، فتحركت إيجابيته بفضل من الله، وقام الأخ الكريم بغسل ملابس إخوانه، وقبل صلاة الفجر، كان قد انتهى، فصلى الوتر مكتفياً به عن قيام الليل، ثم أيقظ إخوانه لصلاة الفجر.! يقول محدثي: إنه قد وجد في نفسه سمواً إيمانياً لم يكن يجده في تعبداته السابقة.

ولا ريب أن يشعر بذلك.. فقد حقق بفعله معنى الأخوة في أسمى ما يكون، والله تعالى قد جعلها من معالم الإيمان حينما قال: (إنما المؤمنون إخوة)[2]

(إن من علائم الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك، وأن تهش لوصوله إليه، كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت، فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع، فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة) [1]

[1] - رواه أبو داود في مراسيله
[2] - الحجرات: ١٣

وفي قرية ضل أهلها سواء السبيل، وفقدوا عقولهم التي وهبهم الله إياها، تفترسهم الأمراض، وينكل بهم الفقر والعوز، وتقتلهم الحاجة وضيق اليد، ويحقد بعضهم على بعض إن تميز أحدهم عن الآخرين بمال أو عقار أو بنين، كل هذا الهلاك، ويذهبون ليضعوا الملايين المملينة في بناء مسجد مع امتلاء قريتهم بالمساجد، وشبابهم ورجالهم ومرضاهم وضعفاؤهم في حاجة لمال ينهض بهم وينقذهم من مآسيهم عبر مشروع أو مصنع أو مشفى أو مدرسة ترتقي بتعليم أبنائهم..

عجباً لهؤلاء.. كيف يفكرون؟ وكيف يتصرفون؟!

يقولون: المال نتقرب به إلى الله، نبذله ولا نضن به في سبيل الله.! وفي وقتٍ تصيب المسلمين فيه نكبات شتى، ما بين احتلال واستعمار، وسفك دماء وهتك أعراض، وما بين استبداد وعمالة وفقر وفساد وعلل وأمراض، ترى السفاهة في الإنفاق، والجهالة في المقصد، والعقل الذي تخدعه الأهواء.

وهي نفس الصورة التي ذكرها (القرضاوي) حين قال: "رأيت من المسلمين الطيبين في أنفسهم من يتبرع لبناء مسجد في بلد حافل بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون، أو مليوناً أو أكثر من الجنيهات أو الدولارات، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة إلى الإسلام أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو تأييد العمل الإسلامي لإقامة الشرع وتمكين الدين، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة، التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات هيهات أن تجد أذناً مصغية، أو إجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون بناء الرجال!

وفي موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيراً ما يضيفون إليه العمرة في رمضان ينفقون في ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناسا من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج ولا العمرة هؤلاء.

فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمحاربة اليهود في فلسطين، أو الصرب في البوسنة والهرسك، أو لمقاومة الغزو التنصيري في إندونيسيا، أو بنجلاديش، أو غيرها من بلاد آسيا

[1] - خلق المسلم للغزالي

وإفريقيا، أو إنشاء مركز للدعوة، أو تجهيز دعاة متخصصين متفرغين، وتأليف أو ترجمة ونشر كتب إسلامية نافعة، لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والإلحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

فليت الذين يتطوعون بالحج –وهم الأكثرية!– ومثلهم الذين يتطوعون بالعمرة طوال العام، وخصوصاً في شهر رمضان، يتنازلون عن حجهم وعمرتهم، ويبذلون نفقاتهما في سبيل الله، أي في إنقاذ إخوانهم المسلمين والمسلمات، الذين يتعرضون للهلاك المادي والمعنوي، وللعدوان الغاشم، الذي يستبيح كل حرماتهم، ولا يريد أن يُبقى لهم من باقية، والعالم المتقدم يرى ويسمع، ولا يحرك ساكناً لأن الغلبة لحق القوة، وليس لقوة الحق!!"[1]

وكثيرا ما كان الشيخ القرضاوي يدعو لاستحضار هذا الفقه الذي قد تزوغ منه بعض العقول، فقد رأى يوما بعض المتدينين الطيبين من أقاربه وأصدقائه، الذين يحرصون غاية الحرص على أداء شعيرة الحج كل عام، ومنهم من يحج سنوياً منذ أربعين سنة، وقد بلغ عددهم ١٠٠ شخص ، وكان الشيخ حاضرا لتوه من إندونسيا وشاهد ما يصنعه التنصير هناك من أعمال هائلة، وحاجة المسلمين الماسة إلى مؤسسات مقابلة، تعليمية وطبية واجتماعية، فذكر هؤلاء المتدينين وقال لهم ما رأيكم لو نويتم ترك الحج هذا العام ، وتبرعتم بنفقاته لمقاومة التنصير.؟!أنتم تبلغون ١٠٠ شخص.. كل شخص منكم يتكلف ١٠٠٠٠ جنيه = (١٠٠٠٠٠٠) لمليون جنه، ويمكن أن يكون هذا المبلغ نواة قوية لمشروع كبير، ولو أعلنا عنه لربما قلدنا فيه آخرون، فكان لنا أجر من اتبعنا.

فإذا بهم يقولون: إننا كلما جاء موسم الحج أحسسنا برغبة لا نستطيع أن نقاومها للحج والمناسك، ونحس بأرواحنا تحلق هناك، ونشعر بسعادة غامرة كلما شهدنا الموسم مع الشاهدين.

[1] - فقه الأولويات دراسة في ضوء القرآن والسنة. د-يوسف للقرضاوي

فرد الشيخ عليهم بقوله: ولو صح الفهم وصدق الإيمان، لكان على المسلم أن يشعر بسعادة أكبر، وروحانية أقوى، كلما استطاع أن يقيم بنفقات الحج مشروعاً إسلامياً، يكفل الأيتام، أو يطعم الجائعين، أو يؤوى المشردين، أو يعالج المرضى، أو يعلم الجاهلين، أو يشغل العاطلين.

ورحم الله خامس الخلفاء الراشدين حينما كتب إليه حجابه ليأمر بكسوة الكعبة المعتادة كل عام، والتي تكلف كثيراً من المال، فما كان منه إلا أن منع ذلك وكتب: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنه أولى بذلك من البيت!

أرأيت: إنها الكعبة بيت الله، يمنع عنها الكسوة من أجل الأكباد الجائعة، فما أفقهه وأرحمه.

يسارعون في الخيرات

طلع الإسلام على الدنيا فكان مخلصاً للإنسان من دنيا العذاب والهموم ، وكان النبي ﷺرمزاً عظيما للرحمة والإشفاق في زمن تجمدت فيه المشاعر ، وصار الإنسان لا يدري آلام أخيه الإنسان، حتى تحولت الدنيا إلى غابة موحشة ، يأكل القوي فيها الضعيف، ويطغى الكبير فيها على الصغير.

وفي دوحة القرآن الكريم نرى ونشاهد صور البر بالإنسان والحث على تقديم الخير للبشر والرحمة واللطف بالعالمين، وهي السجايا التي حينما تخلق بها المسلمون، أقبلت عليهم الملايين من شعوب الأرض تتلمس هدايتهم، وتعتنق دينهم، الذي وجدوا فيه ضالتهم ونشدوا فيه راحتهم في عصر القهر والظلمات.!

لقد حث الله تعالى عباده المؤمنين على الخير وفعله في أكثر من موضع من القرآن الكريم فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)[1]

وما أروع القرآن حينما يقرن في آياته فعل الخير وتقديمه للناس بأسمى عبادة في الإسلام وأعلاها وهي الركوع والسجود، أي الصلاة، إنها رغبة إلهية نلمس مقصدها وهي تريد أن تغرس السعادة في حياة الناس، فيشملهم الخير والبر ويعيش كل فرد في الحياة هانئاً مرتاح البال.!

[1] - الحج: ٧٧

ما أروعه من دين حينما جعل تقديم الخير للبشر.. من أسباب الفلاح.!

قال تعالى في صفة المؤمنين الموحدين الوجلين بأنهم: (يسارعون فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)[1]

وفيها إشادة بهمتهم العالية التي بلغت نهايتها في فعل الخير، ويظهر لنا المولى الكريم ثناءه على الأنبياء والصالحين ويبين لنا بعض سماتهم التي كانت سبب امتداحهم وتميزهم فكان منها: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين)[2]

وهنا لفتة رائعة نسوقها للفائدة، فالله تعالى قدم المسارعة في الخيرات على معالم التوحيد، من الدعاء والخشوع له سبحانه وتعالى رغباً ورهباً..

ثم يحث المؤمنين على المسارعة في فعل الخير، فيقول: (.. فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)[3]

ويبين لهم أن كل أفعالهم ستعود عليهم ويجدون أثرها في دنياهم وأخراهم، وأن كل ما يقدمونه من خير إنما هو لأنفسهم فيقول تعالى:

(وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)[4]

وفي سورة آل عمران بعد أن بين الله تعالى سمات الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وذكر أفعالهم.. شرع في بيان الأمة المستقيمة وبيان أفعالها وثوابها، وكان من ضمن ما وصفهم به، أنهم يسارعون في الخيرات قال تعالى: (لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) [5]

(وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أي لن يحرموا ثوابه أو يفوتهم أجره، بل سيأخذونه كاملاً.

كما ذكر الله تعالى أن أمة المسلمين هي خير أمة أخرجت للناس، ولكن هذا التفضيل لم يكن مجرداً وإنما كان له أسبابه ومقوماته، وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله:

---

[1] -(المؤمنون: ٦١)
[2] -(الأنبياء: ٤٨)
[3] -(المائدة: ٤٨)
[4] - البقرة:٢٧٢
[5] - آل عمران: ١١٣-١١٥

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)[1]

وهنا سؤال يطرح نفسه لماذا قدم الحق تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله مع أن الإيمان بالله أولى وألزم؟! ذلك، أنه قدم ما كان خيره متعدياً عاماً على ما كان خيره قاصراً خاصاً.. فالإيمان لازم، ولكنه يفيدك أنت وحدك، أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيفيد الجميع، ويهدى الجميع، ومن هنا قدمه الله تعالى..

وهل هناك خير من نصيحة تقدمها لغيرك وترشده بها، وأن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر؟! فاحرص إذن على الخير وقدمه كما قدمه ربك سبحانه، ولا تكن كـ(الوليد) رأس الكفر الذي عَرّض به القرآن وذمه الله تعالى ووصفه بقوله: (مناع للخير)

وإليك أمر هذه النملة التي خلد الله تعالى فعلها في القرآن حينما أسرعت لتنبيه قومها من الهلاك المحدق بهم والزلزال المروع الذي سيدهمهم بعد قليل، إنه زحف سليمان وجنوده الذي سيهدم قراهم وبيوتهم ، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم..فقال تعالى على لسانها :

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[2]

إنها لم تفر بنفسها وتنجو بروحها وتقول: أنا ومن بعدي الطوفان، وإنما كان أول عملها حينما علمت بما سيحدث أن أنذرت قومها تبغي نجاتهم فحذرت ونوهت للخطر المروع الذي سيشهدونه، وهي إشارة قوية للمؤمن أن يكون خيراً على الناس، وسبباً لنجاتهم من الأخطار.

وفي قرية من القرى قيل: إنها (أنطاكية)، عبد الناس أصناما وأحجارا من دون الله ، كانوا يسجدون لها ويتبركون بها وهي لا تضر ولا تنفع ، فأرسل الله سبحانه إليهم رسولين يدعونهم للنور والهداية، ونبذ عبادة الأوثان، ولكن أهل القرية كذبوهما وصدوهما ورفضوا نصحهما ودعوتهما، فأرسل الله تعالى رسولاً ثالثاً حتى يعزز به دعوتهم ، لكن القوم مضوا في غيهم ونكرانهم ، وقالوا ساخرين: لقد تشاءمنا منكم ، ولا نرى قدوم الخير بوجودكم ونتوقع أن يأتينا الشر بسببكم ، وإذا لم تنتهوا لنرجمنكم بالحجارة وسيصيبكم منا عقوبة أليمة شديدة.

[1] -(آل عمران: ١١٠)
[2] - النمل:١٨

فرد عليهم الرسل بقولهم: إن طائركم معكم ونكرانكم ووعيدكم لم يكن إلا لأننا ذكرناكم ودعوناكم لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ويسمع (حبيب النجار) بهذا الاحتدام بين قومه والرسل المبعوثين، وكان حبيب رجلاً سقيماً مريضاً بالجزام، وكان كثير الصدقة، وقيل إنه كان يتصدق بنصف كسبه، وهو مستقيم الفطرة، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوها حتى تفرج عنه بلاءه، وكان ممن لقيهم الرسل فدعوه لعبادة الله وحده، فقال لهم هل من آية؟ فقالوا له نعم.. إن الله على كل شيء قدير، والأصنام التي تعبدها حجارة لا تضر ولا تنفع، والله تعالى قادر أن يكشف عن بلاءك ، فدعوا الله له أن يزيل عنه ما به من مرض ، فأزاح الله عنه وصار كأن لم يكن به شيء أصابه، فآمن بالله وعرف نعمته وأقبل على التكسب، وكان إذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف، ويضيق قومه بالرسل ودعوتهم ويهمون بقتلهم فيسمع فيسرع مهرولاً إلى قومه، فيعظهم ويذكرهم بقدرة الله ويذكرهم بخطئهم في تكذيبهم وعنادهم لمن بعثهم الله إلى هدايتهم، فلما نصحهم ضاقوا به ذرعاً ولم يطيقوا منه ذلك فقتلوه، فصعدت روحه عند الله وغمسه الله في نعيم الجنة.. وهنا يصف القرآن الكريم هذا المشهد الرائع، والنفس الإنسانية الرفيعة، التي ما نسيت غيرها حتى ولو كان هذا الغير ممن أساء إليها وأهانها وأهدر روحها وحرمها من حق الحياة ، قال تعالى :(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)[1]

هكذا كان جوابه.! وهكذا كانت أمنيته فما أسمى نفسه! وما أطهر فؤاده! فرغم ما لقي من الأذى والامتهان والقتل من هؤلاء المشركين المكذبين الأشرار، فإنه مازال سمحاً سامياً يرجو لهم الخير ويأمل لهم النجاة والنعيم، وإنها لسمات المخلصين المصلحين الأوفياء للإنسانية وبني الإنسان، مهما لقوا من كره وضيم، فإنهم على العهد قائمون، وفي سبيل الخير مضحون.

ثم يقول تعالى عن موسى والخضر عليهما السلام: (فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)[2]

[1] -(يس:٢٦-٢٧)
[2] -(الكهف:٧١)

(تعرف موسى بالخضر عليهما السلام، وطلب منه أن يتبعه ويصحبه حتى يأخذ ما عنده من علم لا يعلمه.. وجاءت سفينة فاستأذنا أصحابها بالركوب، وكان أصحابها كرماء محسنين فأذنوا لهما ولم يأخذوا منهما أجراة، مبالغة في إكرامهما وطمعاً في دعائهما لما رأوا على وجهيهما من سيماء الصلاح والنور، ولما سارت السفينة وكانت في عرض البحر قام الخضر فخرقها بيده، وقيل اقتلع منها لوحاً! وهنا ثارت ثائرة موسى عليه السلام، وأنكر فعل الخضر الذي يوحى بالإيذاء والفساد، وينفعل عليه أن ظهر منه ما يسوء للناس ويودي بهلاكهم، فقال:

(أخرقتها لتغرق أهلها)؟! لقد كانا يركبان أيضاً على نفس السفينة التي خرقها الخضر.! كان الأولى بموسى لو أنه يلتفت إلى نفسه أن يقول: أخرقتها لتغرقني أو لتغرقنا.. ولكنه قال: لتغرق أهلها، فهو أشد حرصاً على نجاة أهلها منه على نفسه، وهذا هو ما يتحلى به الأصفياء من حب الخير للناس وإنكار الذات.!

ويحكي لنا أحد الإعلاميين قصة طريفة حدثت له في صغره، وكيف تعلم منها الإيجابية والمسارعة لتلبية النداء لكل من أصابته ضائقة أو نزلت به نازلة أو مشكلة حيث يقول: كنت في بداية المرحلة الإعدادية حين شبّ حريق هائل في قريتي بمحافظة الغربية، كنت طفلا مدللا عند أهلي الذين خرجوا جميعا كبقية أبناء القرية الشجعان لإنقاذ البيوت المحترقة وإنقاذ المواشي من الحظائر التي كانت جزءا من هذه الدور كشأْن أي قرية.

كانت الحرائق و صراخ النساء وعويل الأطفال يرعبني فلا أجد وقتها أنا و أمي إلا الجلوس في البيت ندعو الله أن يلطف بالقرية وأهلها، و كانت أمي أيضا تصاب بالهلع من الحرائق و مآسيها، المهم بعد انتهاء الحريق خرجت لأقف أمام المنزل بعد أن اطمأن قلبي و هدأت أعصابي، فإذا بشاب معروف لدى الجميع مهندس زراعي يقترب منى و يأخذ بى جانبا و يقول: أنت مال هدومك نضيفه كده و مش عليها أي آثار للمشاركة في إطفاء الحريق (طبعا الناس كلها كانت متبهدلة)، و قال باستغراب: هوة أنت مرحتش تطفي الحريقة مع أهل البلد؟!

قلت له لا، بس قعدت ادعى وأقرأ قرآن مع أمي، قال لي: تعرف إنك لو ساهمت في إنقاذ جاموسة أو حمار أو أرنب أو بطة من حظيرة المواشي أو الفراخ لأي واحد من اللي بيته بيتحرق،

دى ممكن تساوى عند ربنا في ثوابها قراءة القران وصلوات القيام والنوافل فما بالك لو أنقذت حياة إنسان أو طفل أو ساعدت امرأة أو شيخ عجوز.!

وقال لي: تعرف إن النبي المعصوم كان أول من يهب عند الفزع لأي حادث يصيب الناس يسبقهم إليه؟ بعد هذا الحريق بفترة وجيزة شب حريق في أحد الدور، وكنت أول من هب للمشاركة بعد أن نزع هذا الموقف التربوي كل الخوف والهلع من قلبي من الحرائق والحوادث، وبعد أن علمني هذا الرجل أن الدين إذا لم يكن لبناء المجتمع وإنقاذ حياة الناس من كل خطر يحيط بهم فإنه يكون فهما منقوصاً لحقيقة هذا الدين.!

طريق النجاة

يقول الله تعالى: (فوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً، وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) (الإنسان:١٢)

بماذا ولماذا كتب الله سبحانه النجاة لهؤلاء الأماجد، الذين تحدثت عنهم الآيات المباركة؟ لا شك أن ما فعلوه هو سبيل النجاة، والطريق الأمثل لرضاء الله، والحجاب المانع من وحشة الآخرة وأهوال القيامة ومخاوفها.!

لقد دفع الله عنهم ما كانوا يحذرونه في الدنيا من بؤس هذا اليوم وشره، بما كانوا يعملون في دنياهم من أعمال ترضيه، وكان الجزاء أن لقاهم نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم..والآيات في سياقها المتتابع تجيب عن استفهامنا ولم تأت بالنتيجة دون أن تلفت للسبب، وإنما ذكرته ابتداءً حيث يقول تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً)[١]

نزلت الآيات تحمل البشرى لهؤلاء العظماء، الذين تفانوا في حب الناس وآثروا المحتاجين باللقمة في فمهم، حتى استحقوا هذه البشرى العظيمة في التنزيل الخالد، إنه البر لله وحده وفي سبيله وحده، لا يشركون معه أحدًا آخر.!

[١] -(الإنسان: ٨-١٠)

روي عنه ﷺ أنه قال : (سلك رجلان مفازة: أحدهما عابد، والآخر به رهق ، فعطش العابد حتى سقط ، فجعل صاحبه ينظر إليه ومعه ميضأة فيها شيء من ماء، فجعل ينظر إليه وهو صريع، فقال : والله لئن مات هذا العبد الصالح عطشا ومعي ماء ، لا أصيب من الله خيرا أبداً ، وإن سقيته مائي لأموتن ، فتوكل على الله عز وجل ، وعزم ورش عليه من مائه وسقاه من فضله ، قال : فقام حتى قطعا المفازة ، قال : فيوقف الذي به رهق يوم القيامة للحساب ، فيؤمر به إلى النار ، فتسوقه الملائكة، فيرى العابد، فيقول : يا فلان، أما تعرفني ؟ قال: يقول : من أنت ؟ قال: أنا فلان الذي آثرتك على نفسي يوم المفازة ، قال : يقول : بلى ، أعرفك ، قال : فيقول للملائكة: قفوا، قال: فيوقف، ويجيء حتى يقف ويدعو ربه ، يقول : يا رب، قد تعرف يده عندي ، وكيف آثرني على نفسه، يا رب هبه لي، فيقول: هو لك، قال: ويجيء فيأخذ بيده فيدخله الجنة)[1]

لقد استطاعت هذه التضحية أن تقلب النتيجة يوم القيامة، واستطاع هذا الإيثار أن يغير الوجهة ويبدل الحال من النار إلى الجنان.! ويوم القيامة، وما أدراك ما يوم القيامة؟ هو اليوم الذي تشيب لهوله الغلمان، وتذوب فيه القلوب رغباً وخوفاً، ويكون الإنسان في مواقف شتى، ويكون بحاجة ولو لحسنة واحدة، أو نصف حسنة تُثقل ميزانه وترفع درجته.!

روى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرج خلق من أهل النار ، فيمر الرجل بالرجل من أهل الجنة، فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا الذي استوهبتني وضوءاً- أي الماء الذي يتوضأ به- فوهبت لك، فيشفع فيه ويمر الرجل فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا الذي بعثتني في حاجة كذا وكذا.. فقضيتها لك فيشفع له فيشفع فيه)[2]

روى أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ قال:

(من أعان عبداً في حاجته، ثبت الله له مقامه يوم تزول الأقدام)[3]

---

[1] - مسند أبي يعلى الموصلي

[2] - رواه ابن أبى الدنيا باختصار وابن ماجة، وتقدم لفظه والأصبهانى، واللفظ له

[3] - الصحيحة

ولكن هذا الطريق ليس طريق النجاة في الآخرة فقط، ولكنه كما دلت النصوص فهو طريق النجاة في الدارين معا الدنيا والآخرة، فالصدقة تدفع البلاء عن المتصدّق وأهل بيته، و تمنع ميتة السوء، و قد بيّن النبي ﷺ ذلك بالتمثيل، حين قال: (إن الله أمر يحي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها و يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها..) فذكر الحديث الطويل و فيه: (وآمُرُكم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوُّ، فأوثقوا يده إلى عنقه، و قدّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم ...)[1]

يقول (ابن القيم) رحمه الله في تعليقه على الحديث:

(إن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم و عامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرّون به لأنهم جرّبوه ..وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قدّم ليضرب عنقه، فافتدى نفسه منهم بماله، كفاية، فإن الصدقة تفدى العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه و خطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه)[2]

وقد أخبر النبي ﷺ أن الصدقة تدفع البلاء، وتمنع ميتة السوء..حيث قال:

(إن الصدقة لتطفئ غضب الربّ، وتدفع ميتة السوء.)

وقال: (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها)

وقال: (الصدقة تسُدُّ سبعين باباً من السوء)

وقال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السّر تطفئ غضب الربّ)

وقَالَ: (الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء ، أهونه الجذام ، والبرص)[3]

والشواهد من الواقع المحسوس على تأثير الصدقة في رفع البلاء كثيرة فقد ذكر الهيتمي في الزواجر: (أنه تقرّح وجه أبي عبد الله الحاكم قريباً من سنة، فسأل أهل الخير الدعاء له فأكثروا من

[1] - الترمذي
[2] - في الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم
[3] - الترمذي وابن حبان

ذلك، ثم تصدق على المسلمين بوضع سقاية بنيت على باب داره وصب فيها الماء، فشرب منها الناس فما مر عليه أسبوع إلا وظهر الشفاء وزالت تلك القروح، وعاد وجهه أحسن ما كان)

وحينما يموت الإنسان، فإنه لا يختار من العمل الصالح لورجع للدنيا غير الصدقة كما في قوله تعالى: (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق)

ولم يقل هنا: لأعتمرأو لأصلي أو لأصوم؟

قال أهل العلم: (ما ذكر الميت الصدقة إلا لعظيم ما رأى من أثرها بعد موته..)

ومما قرأت من القصص العجيبة، أن امرأةً رأت رؤيا أنَّ رجلاً من أقاربها لدغته أفعى سامة فقتلته ومات على الفور، وقد أفزعتها هذه الرؤيا وأخافتها جداً، فتوجهت إلى بيته وقصّت عليه رؤياها وعَبَّرَت له عن مخاوفها، وطلبت منه أن ينتبه لما يدور حوله، ويأخذ لنفسه الحيطة والحذر، فنذر الرجلُ على نفسه أن يذبح كبشين كبيرين من الضأن لوجه الله تعالى، عسى أن ينقذه ويكتب له السلامة مما يحذره.

وفي مساء ذلك اليوم ذبح رأسين كبيرين من الضأن، ودعا أقاربه والناس المجاورين له، وقدم لهم عشاءً دسماً، ووزَّعَ باقي اللحم حتى لم يبقَ منه إلا ساقاً واحدة، وكان صاحب البيت لم يذق طعم الأكل ولا اللحم، بسبب القلق الذي يساوره ويملأ نفسه، والهموم التي تنغّص عليه عيشه وتقضّ مضجعه، فهو وإن كان يبتسم ويبشّ في وجوه الحاضرين، إلا أنه كان يعيش في دوامة من القلق والخوف من المجهول، ثم لَفَّ الرجلُ الساقَ في رغيفٍ من الخبز ورفعها نحو فمه ليأكل منها ، ولكنه تذكّر عجوزاً من جيرانه لا تستطيع القدوم بسبب ضعفها وهرمها ، فلام نفسه وقال: لقد نسيت تلك العجوز وستكون الساق من نصيبها ، فذهب إليها بنفسه وقدّم لها تلك الساق واعتذر لها لأنه لم يبقَ عنده شيء من اللحم غير هذه القطعة.

سُرَّت المرأةُ العجوز بذلك وأكلت اللحم ورمت عظمة الساق، وفي ساعات الليل جاءت حيّةٌ تدبّ على رائحة اللحم والزَّفَر، وأخذت تُقَضْقِضُ ما تبقى من الدهنيات وبقايا اللحم عن تلك العظمة، فدخل شَنْكَل عظم الساق في حلقها ولم تستطع الحيّة التخلّص منه ، فأخذت ترفع

رأسها وتخبط العظمة على الأرض وتجرّ نفسها إلى الوراء وتزحف محاولة تخليص نفسها ، ولكنها عبثاً حاولت ذلك ، فلم تُجْدِ محاولاتها شيئاً ولم تستطع تخليص نفسها .

وفي ساعات الصباح الباكر سمع أبناء الرجل المذكور حركة وخَبْطاً وراء بيتهم، فأخبروا أباهم بذلك، وعندما خرج ليستجلي حقيقة الأمر، وجد الحيّة على تلك الحال وقد التصقت عظمة الساق في فكِّها، وأوصلها زحفها إلى بيته، فقتلها وحمد الله على خلاصه ونجاته منها، وأخبر أهله بالحادثة فتحدث الناس بالقصة زمناً، وانتشر خبرها في كلّ مكان، وهم يرددون المثل القائل: (كثرة اللُّقَم تطرد النِّقَم) أي كثرة التصدق بالطعام تدفع عنك البلايا.!

وهذه امرأة أخرى سافر ولدها، فقعدت يوماً لتأكل وليس أمامها إلا لقمة إدام وقطعة خبز، فجاء سائل فمنعت عن فمها وأعطته وباتت جائعة، فلما جاء الولد من سفره جعل يحدثها بما رأى، قال: ومن أعجب ما مر بي أنه لحقني أسد في الطريق، وكنت وحدي فهربت منه، فوثب علي وما شعرت إلا وقد صرت في فمه، وإذا برجل عليه ثياب بيض يظهر أمامي فيخلصني منه ويقول: "لقمة بلقمة"، ولم أفهم مراده.! فسألته عن وقت هذا الحادث وإذا هو في اليوم الذي تصدقت فيه على الفقير، نزعت اللقمة من فمها لتتصدق بها فنزع الله ولدها من فم الأسد.!

طالعت مقالاً للكاتبة السعودية (فاطمة التميمي) وهي تنتقد بمنطق الإيمان تلك الأصوات التي علت في بلادها للتحريض على تحجيم العمل الخيري وكبت منافذه والقضاء على مؤسساته، وقارنت الكاتبة بين ذلك التاريخ الحافل للمملكة العربية السعودية في عملها الإنساني ومساعدة الشعوب المنكوبة، وبين ما صار يحدث حينما تجنت هذه الأصوات على العمل الخيري فقالت: (في سنوات مضت كان العمل الخيري شامة مشرقة في جبين هذا البلد المعطاء ، وكان الناس يتنافسون في البذل والإنفاق ، والمؤسسات الخيرية تتسابق في بذل المعروف في شرق العالم وغربه، في أدغال أفريقيا وجنوب شرق آسيا وتمتد أغصانها لتصل إلى آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية وأمريكا الجنوبية .

وكانت الأكف البائسة تحوطنا بالدعاء والثناء، وتبتهل إلى الله – عز وجل – بأن يكف عنا الشرور والمصائب، كانت الصورة الذهنية التي تملأ الآفاق، كل الآفاق، أن هذا البلد هو بلد العطاء

والمحبة والنصرة، من الطفل الصغير الذي كان يقتطع من مصروفه اليومي لنصرة المستضعفين، ومرورا بشتى طبقات المجتمع شيبا وشبابا، رجالا ونساء.

ثم، ماذا بعد؟! فاجأتنا سنون عجاف كبلت فيها الأيدي عن العطاء تجفيف المنابع، وأصبح رجال العمل الخيري ورواده متهمون بالإرهاب، ثم ثار بعض الصحفيين وأهل الأهواء عليهم، وراحوا يرددون التهم الغربية بدون وعي أو عقل، ونجح الغرب في عزلنا عن إخواننا، وقطعت أجنحة العمل الخيري!

ففاجأتنا زلازل العيص وحرب الجنوب و كارثة سيول جدة، وبدأنا نسمع بنزوح عوائلنا، وبمخيمات الإيواء والمنكوبين، ونرى جموع المتضررين والملهوفين، ولعل من أسباب هذه البلايا انقطاع دعاء المستضعفين الذي كان يحفظنا بحفظ الله إن العمل الخيري سر من أسرار النعيم الذي نتفيأ ظلاله ونتمتع بخيراته.)[1]

ويؤثرون على أنفسهم

قرأت يوما عن الفنان الفرنسي (موليير) الذي تفانى في موهبته وأنهك في سبيل فنه قواه وصحته وسعادته الشخصية، كان ذلك حاله حينما بلغ الواحدة والخمسين من عمره، وفي يوم من الأيام وقد أحس بتعب شديد حاولت زوجته وأصحابه أن يمنعوه من التمثيل في هذه الليلة وطلبوا منه أن يؤجل عرض مسرحيته (مريض الوهم) بعض الأيام حتى يتعافى مما به من ألم ومرض، ولكن موليير رفض أن يؤجل العمل ليس حباً في التمثيل أو ارضاء لدافع الموهبة، ولكن إحساسه بالمسؤولية وحده هو الذي دفعه للتمثيل فقد قال لزوجه: كيف تريدون مني أن أتوقف؟ هناك خمسين فردا في فرقتي المسرحية يأخذون أجرهم يوما بيوم من عروضنا الفنية، ولو توقفت عن العمل فلن يجدوا طعامهم ولا طعام أولادهم، فماذا يفعل هؤلاء إذا توقفنا عن التمثيل؟ إنني سوف ألوم نفسي لوما شديدا على أنني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا ما دام في طاقتي أن أقف على خشبة المسرح، وأصر (موليير) على ان يذهب للمسرح في مساء السابع عشر من فبراير

[1] - صحيفة المدينة – من مقال لفاطمة التميمي - بتصرف

١٦٧٣ وأدى دوره، وفي نهاية المسرحية شعر بالألم الحاد فتماسك ، وأنهى العرض المسرحي بأكمله ، ولكنه سقط فوق خشبة المسرح وقد أصابته نوبة سعال عنيف ، فنقلوه إلى منزله وتبين أنه أصيب بانفجار في أحد الشرايين فمات بعد ساعات من الألم الشديد.!

فأي إنسانية كان يغط فيها صاحب هذا القلب العظيم، الذي لن تغفر له نفسه لو أن من حوله لم يجدوا قوتهم وقوت أبنائهم في يوم واحد..لقد آثرهم على نفسه وعلى راحته وعافيته وقاوم عناءه وتعبه من أجلهم ..وهو إيثار عظيم.. وإن شئت فقل رجولة ومروءة وشهامة في أسمى معانيها ومثلها ..وإذا تحدثنا عن هذا الميدان فإن سيرتنا وتاريخ سلفنا العظيم قد بلغ فيه القدح المعلى..!

ما زلنا في دوحة تراثنا العظيم وفي صحبة الأسلاف العظام نعاين ونشاهد بأعيننا ما قدموه من مثل باهرة تملأنا فخراً واعتزازاً ؛ لانتسابنا لمن علم الدنيا معنى الحضارة ومعالم الرقي وصور الإنسانية حينما كان العالم يرزح تحت نير الهمجية والطمع والقسوة والعدوان..وفي الوقت الذي يتحرج فيه البعض من انتمائه ، تأتي صفحاتنا بما يرفع الرأس تيهاً وتباهيا ، فتحكي وتروي سيرة أناس قهروا الدنيا يوم أن قهروا أنفسهم فطهروها من براثن الأنانية وأوزار الأثرة..!

عن أبي هريرة ﷺ: (أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَن يضمُّ- أو يضيف- هذا؟ فقال رجل مِن الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك ، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنَّهما يأكلان، فباتا طاويين ، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله اللَّيلة- أو عجب مِن فعالكما-، فأنزل الله: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]

وحينما أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون مِن أمر الدُّنْيا شيئًا، تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عزَّ وجلَّ يرجون رحمته ويخافون عذابه، استقبلهم

[1] - (الحشر:٩)

الأنصار الذين تبوَّؤوا الدَّار، وأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء مِن حطام الدُّنْيا...في صورة يعجز عن وصفها اللِّسان والبيان.!

- فعن أنس بن مالك ﷺ قال: (لما قدم المهاجرون المدينة نزلوا على الأنصار في دورهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم نزلنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أبذل في كثير منهم، لقد أشركونا في المهنأ وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا ذهبوا بالأجر كلِّه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلَّا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم به عليهم)[1]

- ولما قدم (عبد الرَّحمن بن عوف) إلى المدينة آخى النَّبيُّ ﷺ بينه وبين (سعد بن الرَّبيع الأنصاريِّ)، وعند الأنصاريِّ امرأتان، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السُّوق..)

يالله إننا نعهد الايثار في المال و الأكل والشراب، أما أن يكون في الزوجة ..فهذه جديدة لا تكون إلا من أصحاب محمد ﷺ الذين أعدهم ليكونوا قادة الدنيا وأساتذة الفضيلة..! بل كان ما هو أبلغ وأبلغ، حينما جعلوا الإيثار في حق الحياة، وهو ما فعلوه في (اليرموك) حيث قال (عكرمة بن أبي جهل): (قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟! ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه (الحارث بن هشام)، و(ضرار بن الأزور) في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط (خالد) حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم.. فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم - مِن واحد إلى واحد- حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم.)

وأخذ (عمر بن الخطَّاب) ﷺ أربعمائة دينار، فجعلها في صرَّة، ثمَّ قال للغلام: (اذهب بها إلى (أبي عبيدة بن الجرَّاح)، ثمَّ تلكَّأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه، ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر،

[1] - أخرجه أبو داود (٤٨١٢) مختصراً، والترمذي (٢٤٨٧)، والنسائي في ((عمل اليوم والليلة)) (١٨١)، وأحمد (١٣٠٧٥) باختلاف يسير، وصححه الألباني

فأخبره فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى (معاذ بن جبل)، وتلكَّأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا. فاطَّلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا. ولم يبق في الخرقة إلَّا ديناران فنحا بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم مِن بعض)[1]

وقال عمر بن الخطاب لأخية زيد بن الخطاب يوم أحد: (أَقسمتُ عليك إلا لبستَ درعي، فلبسها ثُمَّ نزعها، فقال له عمر: مالك؟ قال: إني أريد بنفسي ما تُريد بنفسك) [2]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أُهدي لرجل من أصحاب النبي ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث به الواحد إلي الآخر حتَّى تداولها سبعة أبيات، حتَّى رجعت إلى الأول، ونزلت: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[3]

و عن عائشة زوج النبي ﷺ: (أن مسكينًا سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه. قالت: أعطيه إياه. قال: ففعلت. قالت: فما أمسينا حتى أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ممن كان يُهدي لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة فقالت: كُلي من هذا، هذا خير من قرصك) الموطأ

وعن عطاء الخراساني كما في تاريخ دمشق: (أن امرأة أبي مسلم الخولاني -أحد كبار التابعين الزهاد- قالت: ليس لنا دقيق. فقال: هل عندكِ شيء؟ قالت: درهم بعنا به غزلاً، قال: ابغينيه وهاتي الجِرَاب، فدخل السوق فأتاه سائلٌ وألحَّ، فأعطاه الدرهم وملأ الجِرَاب نُشارة مع تراب، وأتي وقلبُه مرعوب منها، وذهب ففتحته، فإذا به دقيق حُوَّاري فعجنت وخبزت، فلما جاء ليلاً، وضعتْه، فقال: من أين هذا؟ فقالت: من الدَّقيق، فأكل وبكى)

وعلى درب الصحابة العظام، كان رجال الأمة الأبرار، يدلون بدلوهم في دنيا الايثار والفداء وحب المسلمين.!

---

[1] - كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك
[2] - رواه ابن سعد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن
[3] - البيهقي في شعبه

جاء في تهذيب الكمال: (جاء (فُضيل بن مرزوق) وكان من أئمة الهدى زُهدًا وفضلاً إلى (الحسن بن حيٍّ)، وكان لا يأتيه ولا يعلمه أنه ليس عنده إلا عند ضيق شديد فيخبره، فأتاه فأخبره أنه ليس عنده شيء، فقام الحسن فأخرج ستَّة دراهم، وأخبره أنه ليس عنده غيرها، فقال: سبحان الله ليس عندك غيرها وأنا آخذها؟! فأبى الحسن ابن حيٍّ إلا أن يأخذها كلها، وأبى (فضيل بن مرزوق) حتى ناصفه، فأخذ ثلاثة، وترك ثلاثة)[1]

وذكر (عبد الله بن أحمد بن حنبل)، أن (أبا سعيد بن أبي حنيفة) المُؤدِّب قال له: (كنت آتي أباك (يعني أحمد بن حنبل) فرُبَّما أعطاني الشيء وقال: أعطيتك نصف ما عندنا؛ فجئت يومًا فأطلت القعود، فخرج ومعه أربعة أرغفة فقال: يا أبا سعيد، هذا نصف ما عندنا، فقلت: يا أبا عبد الله، هذه الأربعة الأرغفة أحبُّ إليَّ من أربعة آلاف من غيرك)

وعن يحيي بن هلال الورَّاق قال: (جئت إلى محمد ابن عبد الله بن نُمير -أحد أئمة الحديث الثقات- فشكوت إليه، فأخرج إليَّ أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وقال: هذا نصف ما أملك، قال: وجئت مرَّةً إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فأخرج إليَّ أربعة دراهم، وقال: هذه جميع ما أملك)

وروى الدينوري في (المجالسة وجواهر العلم) أن رجلاً (ظلَّ صائمًا في عام قحط، فابتُلي بسائل فقير عند فطره وقد أُتِي بقُرْصين له؛ فألقى إليه أحدهما، ثم قال: ما هذا بمُشْبِعه ولا هذا بمُشْبِعي، ولأن يشبعَ واحد خيرٌ من أن يجوع اثنان، فألقى إليه الآخر، فلما أن آوي إلى فراشه؛ أتاه آتٍ في منامة، فقال: سَلْ ما شئت، فقال: المغفرة، فقال: قد فعل الله بك ذلك؛ فسَلْ غير هذا. فقال: أسأل أن يُغاث الناس)

كما كان حس الإيثار قويًا متنامياً في نفوس الأولين كبارًا وصغارًا، ويمارسونه في حياتهم لا مع الإنسان فقط وإنما مع الحيوان الأعجم.!

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلبٌ ودنا مِن الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه

[1] - رواه الترمذي

الثَّاني والثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟! قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟! قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء! إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي. فاشترى الحائط والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه)[1]

- ورُوِي أنَّ (مسروقًا) أدان دينًا ثقيلًا، وكان على أخيه (خيثمة) دين، قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة، وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.!

لم يكن الإيثار طبعًا جبلت عليه النفوس أو توارثوه أبناء عن آباء، وإنما كان خلقاً طبع به ديننا كل من دان به، وحينما أقام أسلافنا هذا الخلق في حياتهم، جاء منهم ما يشبه الأساطير في فناء الذات وحب الآخرين.!

دلائل الاصطفاء

لقد ساق الله تعالى ذكر الأنبياء في كتابه الحكيم، وقص علينا أخبارهم، وبين لنا شمائلهم وأخلاقهم.. وكيف سادوا الناس بهذه المكارم؟

لقد اصطفاهم الله على الناس، وكان لهذا الاصطفاء دلائله وبراهينه، التي تجلت في سماتهم النجيبة وأخلاقهم العالية، والتي حددها القرآن حتى يكون لنا منها حظ ونصيب.. ولا شك أن هذه المثل العظيمة، تدفع كل محب للأخلاق أن يطالع حياتهم ليرى أبرز ما يميزها، وما هي القيم الرفيعة التي اشتهروا بها وحثوا عليها، وأصلوها في مجتمعاتهم.. وها هو القرآن الكريم يكفينا معاناة البحث في دهاليز الدهور، فيخبرنا بصفاتهم التي كان أهمها وأجلها تقديم الخير للناس والبر بهم والسعي لخدمتهم.

قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)[2]

[1]- إحياء علوم الدين للغزالي
[2] - (الأنبياء: ٧٣)

لقد كان أول شيء حثهم عليه ربنا الكريم وأوحاه إليهم هو فعل الخيرات، وإقامتها بين الناس، كما أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة لا ينفصلان عن فعل الخيرات، فهي أصل الدين وشعائره التي توقظ ضميرك فيظل حياً على الدوام، فلا يقدم إلى الناس إلا كل خير وبر ونفع.

فهذا موسى عليه السلام وهو الفقير المطارد والجائع المشرد، يرى بنتين تأخرتا عن السقي، ولم يجدا حولهما رجلاً شهما يسقي لهما، فتحركت فيه نوازع المروءة وتقدم ليسألهما:

(مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)[1]

إنهما لم يطلبا المساعدة، ولكنه هو الذي تقدم إليها متطوعاً، لأن مثله لا ينتظر حتى تُطلب منه المساعدة، وإنما يُبادر هو إليها.. مهما أثقلته الظروف والهموم التي قد تشغل المرء بنفسه عن غيره، وتحمله في قوارب الحزن ليتجنب الحياة ومن عليها، بل إن هذه الهموم الثقال التي أهمت نفسه وشتت حياته، لو نظرنا في أسبابها لوجدنا أن الذي جره إليها، إنما هو حبه للخير ونصرته للضعيف، وإنصافه للمظلوم في وجه الظالم المتجبر.!

لقد استغاث به الضعيف فلم يتركه حتى نصره وتسبب في قتل المصري المعتدي وأصبح موسى (فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)، كان هذا حاله، حال إنسان مطارد خائف، يتوقع الشر في كل خطوة، ثم هو حذر مترقب، يلتفت خلفه لأوهى الحركات وأخفاها.

وعاهد موسى نفسه بأنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين، ولن يتدخل في المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدافع عن أحد من قومه، وفوجئ بنفس الرجل الذي أنقذه بالأمس وهو يستغيث به ليخلصه من ظالم آخر في عراك آخر.. ف صرخ موسى في وجهه وقال إنك لغوي مبين، فظن المشاغب أن موسى يريد أن يبطش به فأعلن سره على الناس، فانتشر الخبر في أرجاء المدينة، فأسرع إلى الخروج من مصر، قبل أن يتعرض للقصاص.!

وحينما أرسله الله وأخاه هارون إلى فرعون، وقفا يخاطباه في شأن بني إسرائيل، ويطلبان منه أن يحررهم ويطلق سراحهم، ويكف عن استعبادهم واستضعافهم وتسخيرهم، فقال الله تعالى:

[1] -(القصص:٢٣)

فـ(أْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)(طه:٤٧) ولكن فرعون أبى أن يستجيب وأخذ يذكر موسى بما قد مضى من عطفه وإنعامه عليه ، وإحسانة له وجميله في تربيته ورعايته ..

قال تعالى: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (الشعراء:١٨-١٩)

فرد عليه موسى بقوله: (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء ٢٠-٢٢)

وكلام موسى قيل على جهة الإنكار، أي أتمنُ علي بأن ربيتني وليدا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، أي ليست بنعمة، لأن الواجب يقتضي ألا تقتلهم ولاتستعبدهم، فإنهم قومي فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص.؟!

وكذلك نبي الله (شعيب) يُعنىَ بهموم الناس ويتبنى مشكلات المستضعفين من قومه، وكان يخاطب المستكبرين في شأنهم فيما حكاه الله تعالى على لسانه: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الشعراء:١٧٨-١٨٣)

ويوسف عليه السلام كان يؤدي واجبه نحو زملائه وهو في السجن، فكان محسناً لهم، قائماً على رعايتهم.. مما دفع صاحبيه أن يطمئنا له ويستأنسا به ويقولا: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف:٣٦)

بل حمل في نفسه مصائر الناس ومستقبلهم المنذر بالخطر، فعرض خدماته متطوعاً في السنين العجاف التي نبأت بها رؤية الملك، ليقوم بتوزيع المواد الغذائية بخبرة وعدالة فينقذ الناس من هذا الخطر المحدق قال تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف:٥٥)

وهي دعوة لكل من يرى من نفسه قدرة على خدمة الناس أن يبادر بتقديم المساعدة، ولو أن يطلب ذلك بنفسه ولا ينتظر حتى يطلب منه.. (واقتراح يوسف عليه السلام ، إنما هو إعداد

لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها)[1]

وهذا إبراهيم أبو الأنبياء كان معروفاً بكرمه وجوده، حتى أنه كان لا يأكل إلا بضيف، لقد كان أكرم البشر في زمانه على الإطلاق قال تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)[2]

وصف الملائكة بأنهم مكرمون، والذي أكرمهم هو (سيدنا إبراهيم حينما أعدَّ لهم طعاماً وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده، وجعل امرأته تشاركه في خدمتهم، مع أن المرأة مستورة، وأكرمهم بأن بادرهم بالتحية، ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر، إنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً مرة وصفه بأنه سمين، ومرة وصفه بأنه حنيذ، وهذا كمال في الوصف، فهو سمين في ذاته، أي: ليس هزيلاً في تكوينه وهو حنيذ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم، فهو من حيث طريقة طهيه حنيذ مشوي، وهذا منتهى الإكرام)[3]

إنهم ثلاثة من الغرباء غير معروفين لديه ولم يرهم من قبل، ولم تكن له بهم علاقة أو معرفة، فلا هم أقرباؤه ولا أصحابه، ومع هذا جاء بهم واستضافهم في بيته وأكرمهم بأفضل ما عنده من طعام، وهذا من عظيم حبه لإكرام الناس، من عرفه منهم ومن لا يعرفه.

وهكذا كان أنبياء الله ليسوا رهباناً في صوامعهم أو زهاداً في الصحاري والمغارات، يناجون ربهم ويبتهلون له بعيداً عن الخلائق يهيمون في أشواقهم في عزلة موحشة، لا.. لم تكن حياتهم أو رسالتهم على هذا التصور القاصر، وإنما كانت رسالتهم تعلن كل يوم عن مضمونها وموضوعها، فإنها جاءت من أجل الناس وإسعادهم وخيرهم..وإنها (منهج متكامل، تتعاون عباداته، وشعائره، وتكاليفه الفردية، والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية، تعود كلها على البشر، غاية

[1] - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور
[2] -(الذاريات: ٢٤-٢٨)
[3] - خواطر الشعراوي

تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس، ويتكافلون في الخير، والصلاح، والنماء، وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد، إن حقيقة التصديق بالدين، ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب، يدفعه إلى الخير، والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً، تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار)[1]

لا تحقرن معروفك!

مهما كان حجم هذا المعروف، فقد يجعل الله فيه نجاتك، فلا تستصغرن معروفك أبداً، فلعل الله تعالى يكتب لك السعادة والفلاح بهذا الذي تستقله، لقد نادى رسول الله ﷺ بالإنفاق على تجهيز الجيش، فيأتي رجل من فقراء المسلمين بحفنة من التمر، ما وجد غيرها ليحملها في كفه، ويأتي بها إلى الرسول العظيم، ويتغامز الناس في المسجد ماذا تعني هذه الحفنة؟ وهل تقدم أو تؤخر؟ أما رسول الله ﷺ فلم يقل له: أما وجدت غير هذا ؟أو قال له: نحن في غنية عن حفنتك، وإنما قال له: (آجرك الله فيما أعطيت وبارك الله لك فيما أبقيت)!

وهو معنى الاستصغار الذي لم يكن له وجود في حياة العظماء والمصلحين والبنائين فـ (مهما كان المرء فقيرًا، فإنه يستطيع أن يعطي شيئًا لمن هو أفقر منه، إن أصغر موظف لا يتجاوز راتبه مئة وخمسين قرش، لا يشعر بالحاجة ولا يمسه الفقر إذا تصدق بقرش واحد على من ليس له شيء، وصاحب الراتب الذي يصل إلى أربعة جنيهات لا يضره أن يدفع منها خمسة قروش ويقول: هذه لله، والذي يربح عشرة آلاف من التجار في الشهر يستطيع أن يتصدق بمئتين منها في كل شهر)[2]

وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[3]

والخير مهما قَلَّ فهو عند الله محبوب، وفي مُحكَم التنزيل: (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[4]

---

[1] - في ظلال القرآن
[2] - من مقال للشيخ علي الطنطاوي
[3] -(الزلزلة: ٧ – ٨)
[4] - (التوبة: ١٢١)

وقال ﷺ: (بينَما رجلٌ يمشِي بطريقٍ وجَد غُصنَ شوكٍ على الطريق فأَخَّرَه، فشَكَر الله له فغفَر له)[1]

وجاء عند أبي داود: (نزَع رجلٌ لم يعمَل خيرًا قطُّ غصنَ شوكٍ عن الطريق؛ إمَّا كان في شجرةٍ فقطَعَه فألقاه، وإمَّا كان موضوعًا فأماطَه، فشكَر الله له بها، فأدخَلَه الجنَّة)

وهذا نبأ البغي معلوم ومعروف فعنه ﷺ: (بينما كلبٌ يطيف برَكِيَّة قد كاد يقتُلُه العطَش، إذ رأَتْه بغيٌّ من بَغايا بني إسرائيل، فنزَعَتْ مُوقَها (أي: خفها) فاستَقَتْ له به، فسقَتْه إيَّاه، فغُفِر لها به)[2]

وهذا رجلٌ من الأُمَم السابقة أنبأنا عنه ﷺ فقال: (تلقَّت الملائكة رُوحَ رجلٍ ممَّن كان قبلَكم، فقالوا: أعمِلتَ من الخير شيئًا؟ قال: لا، قالوا: تذكَّر، قال: كنتُ أُداين الناسَ فآمُر فِتياني أنْ يُنظِروا المُعسِر، ويتجوَّزوا عن المُوسِر، فقال الله – عزَّ وجلَّ –: تجوَّزوا عنه)[3]

وفي لفظٍ عند مسلم: قال الله تعالى: (أنا أحقُّ بذا منك، تجاوَزُوا عن عبدي)

ويأتي رجلٌ إلى النبي ﷺ قد امتلأ نشاطًا، وتحرَّكت همَّته للمسابقة في أبواب الأعمال الصالحات، فيسأَل النبيَّ ﷺ عن المعروف فيأتيه الجواب: (لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أنْ تُعطِي صلة الحبل، ولو أنْ تُعطِي شِسعَ النَّعل، ولو أنْ تَنْزِع من دَلوِك في إناء المُستَسقِي، ولو أنْ تنحِّي الشيءَ من طريق الناس يُؤذِيهم، ولو أنْ تَلقَى أخاك ووجهُك إليه مُنطَلِق، ولو أنْ تلقى أخاكَ فتُسلِّم عليه، ولو أنْ تُؤنِس الوَحشان في الأرض)[4]

والمقصود بالوَحشان: الغريب، وإيناسُه أنْ تَلقاه بما يُؤنِسه من القول والفعل الجميل.

ومما حفظت في دراستنا الأزهرية، وذكره أبو نعيم في الحلية، قول الحسن البصري ﷺ :(يا ابن آدم إنك ناظر إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئا وإن هو صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن من الشر شيئا فإنك إذا رأيته ساءك مكانه)

ولعل الأفعال اليسيرة التي تستصغرها أعيننا وعقولنا، يكون فيها ومنها خير عظيم لا قبل لنا به، بل ربما يكون منها سعادتنا في الدنيا والآخرة، ولكننا لا ندرك ..وإليك هذا الموقف البسيط الذي كان له ما بعده من خير عظيم، فهذا فلبيني يعمل في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية

[1] - متفق عليه
[2] - متفق عليه
[3] - متفق عليه
[4] - رواه أحمد بسند صحيح

لـم يحدثه أحد عن الحور العين ولا أنهار الجنة ولا حميم جهنم، ولكنه يقول : إن سيارته تعطلت فاضطر للذهاب بسيارة أجرة للعمل في مقر عمله في حي في أطراف الرياض ذلك الوقت، وعند خروجه ظهرا وفي درجة حرارة تتجاوز ٤٥ درجة لم يستطع أن يجد سيارة أجرة، فاضطر للمشي على جانب الطريق متمنيا مرور سيارة ما، ولم يكن له أن يتوقف، فلا شجرة يستظل بها ولا جدار يستند إليه، لذلك فالمشي هو أفضل الحلول.

فجأة توقفت سيارة خاصة يقودها سعودي، وعرض توصيله، لم يكن السعودي يتكلم الإنجليزية ولم تكن عربية الفلبيني جيدة، ولكنها كانت كافية في أن يفهم أن الرجل يرغب في إيصاله.

يقول الفلبيني: إن السعودي أطفأ مكيف السيارة، كنت غاضبا من ذلك، ولكني لا أستطيع أن أتذمر، فهذا الرجل يساعدني بتوصيلي على الأقل، ولكن بعد دقائق قام الرجل بتشغيل جهاز التكييف، استغربت ذلك ولكني لم أعلق، وبعد وصولنا لمنطقة مأهولة مقارنة بمكان عملي أشار لي السائق أنه سيتجه شمالا، فأشرت له أن ينزلني لأني سأتجه في اتجاه آخر، شكرته وأنا أنزل من السيارة ولكن لم أستطع إلا أن أسأله لم أطفأت التكييف ثم أعدت تشغيله؟ وفوجئت برده حيث فهمت مما قال: إنني كنت أتصبب عرقا فخشي أن أصاب بلفحة هواء فأمرض، لذلك انتظر حتى جف عرقي وارتحت فقام فأعاد التشغيل.

كان هذا أمرًا شغل تفكير الفلبيني لأيام، كيف يحرص عليه شخص لا يعرفه أكثر من حرصه على نفسه، وأسلم هذا الرجل لأنه قابل مسلمًا سمحا لدقائق في حياته، ولكنه قلب حياته – وآخرته– رأسا على عقب.

إن هذا التصرف اليسير الذي يفوح رقة وذوقاً، دفع الرجل لاعتناق الإسلام، في الوقت الذي لو سلكت في طريق هدايته بآلاف المواعظ والخطب، لربما لم يستجب لك، أو أنك سهرت بجواره الليالي والأيام تنصحه وتدعوه لما كنت لتأتي بمثل هذه النتيجة التي أثمرت عملاً صالحا خير للمرء منا من حمر النعم، أو خير من الدنيا وما فيها حسب ما أشار الحديث النبوي الكريم.

ولقد قرأت مرة قصة شاب سافر للدراسة في اليابان في العاصمة طوكيو، وفي ليلة شتائية تساقطت الثلوج الباردة والمطر الشديد، فلم يجد سوى مظلة صغيرة بيد عجوز يابانية تحتمي بها، وما أن رأته المرأة العجوز، حتى جذبته نحوها ليحتمي معها من زخات الثلوج التي غمرت المكان، وشيئًا فشيئًا راحت تسحب غطاء من النايلون تزود به سترتها لكي تغطي رأسها القصير الأبيض، ثم تدفع المظلة نحو الشاب الغريب الذي بدا مرتجفًا بعد أن فاجأه شتاء طوكيو القارس.

يقول: أصبحت السيدة خارج المظلة تماما، وكلما حاولت دفعها نحوها أبت، وتعللت أنها تحتمي بقطعة من النايلون الشفاف، وعند مفترق الطريق أصرت على أن تمضي لسبيلها، مبقية المظلة لهذا الغريب.

يضيف: راقبتُ السيدة الطاعنة في السن تنسل رويدا رويدا تحت الثلوج حتى اختفت، ولم تلتفت إلى الوراء، لقد هزني الموقفُ من الأعماق.!

وتأمل قوله: (هزني الموقف من الأعماق)، فهذا الموقف البسيط من سيدة طاعنة في السن، أدى لأن يعيد الشاب حساباته، ويغير موقفه من بلاد وثنية لا تدين بالإسلام، يشعر فيها بالأمان حينما يرى ويشاهد العطف الإنساني وهو يمارس عليه شخصياً، كما لا يمكن له مهما مرت به السنين أن ينسى هذا الصنيع الراقي، والذي لا يحسن من صورة امرأة عجوز لا يعرف عنها شيئاً فقط، وإنما يزيد من جمال صورة اليابانيين جميعاً في ميدان الذوق والإنسانية.!

العقلاء دائما لا يمررون الصغائر ولا يستهينون بها وكما يقولون: معظم النار من مستصغر الشرر.! (فهناك من الصغائر ما تكون له أكبر النتائج، فقد يقتل الجراح مريضه إذا لم يعن بصغائر العملية، وقد يشيد أحد المهندسين جسراً عظيما سرعان ما ينهدم لأنه أهمل النظر في شيء كان يبدو في غاية التفاهة، ولابد أنك سمعت عن النار تشب من مستصغر الشرر، ولكنك لو أردت لسمعت عن أناس مرضوا أو ماتوا، لأنهم دعوا إلى وليمة، وكان الطباخ قد أهمل الآنية وطبخ وبها مقدار صغير من زنجارة النحاس، ولو أردت أيضا لسمعت عن خراب عائلات يرجع إلى عوائد صغيرة اعتادها رب البيت أو ربة البيت، ما كان يظن أحدهما أنها كبيرة الأثر إلى هذا الحد،

والسيجارة الأولى التي يدخنها الشاب ليؤكد بها بلوغه طور الرجولة، تبدو صغيرة غاية في التفاهة، لكنها إذا صارت عادة تملكت صاحبها في سن الشيخوخة حتى لو حسب بعد ذلك ما أنفقه في التدخين لبلغ الآلاف من الجنيهات، والكأس الأولى التي يشربها الشاب مجاراة لإخوانه وإثباتا لرجولته وتمدينه، قد تكون بعد ذلك سببا لخراب عائلته إذا تملكته عادة الإدمان.)[1]

وفي ميدان الاستهانة بالصغائر يعرض لنا الدكتور (مصطفي محمود) رحمه الله عرضاً رائعاً يخيفنا من الصغائر، ويجعلنا نقدر الخطر منها قبل غيرها من كبائر الأمور، ويفهمنا أن التقييم يجعل المرء حكيما في تصوراته وتقديره للأشخاص والأمور، فيذكر في كتابه القيم الشيطان يحكم: "نقول عن واحد أنه أتفه من ذبابه، هل فكرت ماذا يمكن أن تصنع الذبابة؟ إن ذبابة واحدة تافهة، يمكن أن تحمل على أرجلها الدفتيريا والسل والدوسنتاريا وشلل الأطفال والكوليرا، ويمكنها أن تبيد أمة وتفنى جيلاً، وتقلب دفة النصر في معركة، تفعل كل هذا وهي ذبابة! إن ميكروباً لا يرى بالعين قتل في سنة ١٩١٩م أكثر من عشرين مليون ضحية! وهو لا يعدو أن يكون ميكروبا لا يرى.! وهذا الكيميائي الذي يكتب بحثا في العفن، لا تتهمه بالجنون والتفاهة، فالعفن ليس شيئا تافها، ألم يخرج لنا البنسلين؟ وما أتفه الذرة، إنها لا ترى بأكبر ميكروسكوب، وهي ليست سوى فرض من فروض الكيمياء، أليس كذلك؟ ومع ذلك فإن تلك الذرة المفترضة هي التي أنهت الحرب العالمية الثانية وجعلت اليابان تركع وتخسر الحرب، والذي يقول عن أي شخص إنه تافه، لأنه لم يفعل في نظره شيئا ذا بال، فإنما يدل على جهله هو نفسه أولا، فمن يدري ماذا يفعل هذا غدا، قد يكون مثل (مندل) الذي لم يكن يفعل شيئا سوى تلقيح أزهار حديقته، والتأمل في نسلها ثم اكتشف قوانين الوراثة! لكل شئ في هذه الدنيا خطره مهما كان ضئيلا، وقد تكون أنت جندي اليوم، وقائد المعركة غدا، (النمرود بن كنعان) هو أحد أربعه حكموا العالم، ومات بسبب بعوضه دخلت في أنفه ولم ينجده كل حرسه وجنده وعتاده.

لا تحقرن صغيرة وإن ضعفت ** إن البعوضة تدمى مقلة الأسد

[1] - في الأدب والحياة - سلامة موسى- بتصرف

و(الاسكندر) المقدوني الذي دوخ العالم، لم يعد إلى بلاده بسبب لدغة بعوضه، فقد مات بالملاريا أثناء عودته من الهند ولا أحد يعرف أين دفن، فقط: لا تقل على أحد إنه تافه، احترم أي أحد مهما صغر شأنه.. الطفل.. وزبال الطريق.. وعامل المقهى.. والفقير والمسكين.. ومن لا حيلة له ولا صولجان في يده.. أنت بالاحترام لن تخسر شيئًا وستكسب قلوب الناس، إذا فعلت هذا فإنك سوف تخطو أول خطوة لتكون رجلًا حكيما."

وفي الجاهلية كانت الحرب المؤلمة تقوم بين القبائل وتستمر لسنوات وسنوات لأتفه الأسباب، كما حدث بين قبيلتي عبس وذبيان، والتي لم تكن أسبابها شيئاً ذا بال، لتؤدي لكل ما أدت إليه من حروب وعداء، وقتل وتخريب بين الفريقين، فكثيرا ما نحتاج للحكمة في نظرتنا للأشياء، وكثيراً ما نندم إن أهملنا التريث والتأني ولم نتجاوز ما توهمته أعيننا، والعين هي أكثر جوارح الإنسان خداعاً تستطيع بسهولة أن تخدعها وتمنحها ما تشاء أنت من المعاني، فلا تصدق العين في كثير مما ترسله إلى عقلك من إشارات وإيماءات، تكشف في النهاية خطأها وانحرافها.

وأكثر ما تخدعنا أعيننا في تقييم الأشخاص من حولنا، فلو رأيت رجلاً طويلا فارها متزينا أنيقا نظيفاً أكبرته وأعظمته واستحليت النظر والحديث إليه والتأمل في هيئته، ولعل هذا الجمال ينطو على نفس خبيثة وشخصية حقيرة الصفات والفعال، لا يباريها الشيطان قبحاً وشراً.!

انظر لهذا الشيخ الذي خدعته عينه عن حقيقة هذا الأديب النابغة، وكيف دهش واستاء حينما أغفل موهبته وخفي عليه شخصه؟

وهي الحكاية الطريفة التي حدثت للأستاذ الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله في مقتبل عهده بالتدريس لنتعلم منها أول ما نتعلم أن لا نستهين بالأشخاص، ولا نعاملهم بأحجامهم وأجسامهم مهما صغرت، فحينما كان يعمل في العراق سنة ١٩٣٦ نقل مرة من بغداد إلى البصرة، إثر خصومة بينه وبين مفتش دخل الصف فسمع الدرس، ثم شرع ينتقد درسه فقال له الطنطاوي: ومن أنت يا هذا؟ ودار بينهما ما دار، ثم كتب الطنطاوي عنه مقالة يهجوه فيها، فاستقال الرجل و(طار) إلى بلده، ونقل هو عقوبة له إلى البصرة.

ولما وصل إليها دخل المدرسة، وسأل عن صف (البكالوريا) بعد أن نظر إلى لوحة البرنامج، ورأي أن الساعة حانت لدرس الأدب، وتوجه إلى الصف من غير أن يكلم أحدًا أو يعرفه بنفسه، فلما دنا من باب الصف وجد المدرس، وكان كهلا بغداديًا على أبواب التقاعد، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعه يوصيهم (كرمًا منه) بخلفه الأستاذ الطنطاوي، ويقول هذا وهذا ويمدحه.

فقال الطنطاوي في نفسه: إنها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضا وأثني عليه، ونسي أنه حاسر الرأس، وأنه يحمل معطفه من الحر على ساعده، ويمشي بالقميص وبالأكمام القصار، فلما دنا للباب قرعه قرعا خفيفًا، وهم بالدخول؛ فالتفت إليه المعلم الشيخ وصاح: إيه زمال وين فايت؟ (والزمال هو الحمار في لغة البغداديين) فنظر الطنطاوي في نفسه، وأخذ يتساءل هل أذني طويلتان؟! هل لي ذيل؟! فقال: شنو ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح! وانطلق المعلم الكهل بـ(منولوج) طويل فيه من ألوان الشتائم مما لا يعرفه المشتوم، ويقابل الطنطاوي كل هذه الشتائم بابتسام، ثم قال له: تعال نشوف تلاميذ آخر زمان، وقف احك شو تعرف عن البحتري، حتى تعرف أنك زمال ولاّ لا؟!

فوقف الطنطاوي وتكلم كلاما هادئا متسلسلاً، بلهجة حلوة، ولغة فصيحة، وبحث وحلل وسرد الشواهد وشرحها، وقابل بينه وبين أبي تمام، وألقى درسًا قويا بليغاً.!

والطلاب ينظرون مشدودين، ممتدة أعناقهم، محبوسة أنفاسهم، ونزل المدرس المسكين عن كرسيه، وانتصب واقفاً، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة، ولا يملك أن ينطق، والطنطاوي لا ينظر إليه حتى قرع الجرس، فقال له: من أنت؟ ما اسمك؟ فقال: علي الطنطاوي! وكان موقفاً محرجاً أصيب فيه المعلم بدهشة عقدت لسانه وتفكيره.

فكن حذراً من الصغائر فقد تأتيك منها العاقبة، وترى منها مالم يكن يخطر على بالك وفكرك، ولا تستهين في باب المعروف بصغيرة، فبسمة في وجه أخيك قد تجر عليك خيرا عظيما حينما تصادق قلباً رحيما محبا للبشر.!

المنكسرون

تغنت وسائل الإعلام الغربية بما فعله البابا (فرنسيس) حين أتاح لـ ١٥٠ مشرداً أن يتجولوا في الفاتيكان بدعوة منه وقال الفاتيكان: إن هؤلاء المشردين سيحصلون على جولة خاصة ومميزة لمتاحفه وكنيسة (سيستين)، حيث أقام لهم البابا منشآت خاصة للإستحمام فيها، وسوف يدخلون عبر مدخل مخصص للأساقفة والموظفين، ويسيرون عبر نزل الضيافة حيث يعيش البابا نفسه، ثم يحصلون على مشاهدة مميزة للباحة الخلفية لأبرشية القديس بطرس وحدائق الفاتيكان، وستغلق مبكرا كل المتاحف التي يزورها نحو ستة ملايين شخص سنويًا، مقابل ١٦ يورو على الأقل للفرد، حتى يتمكن المشردون من الحصول على معاملة مميزة في كنيسة (سيستين) بلوحاتها الجدارية الشهيرة لمايكل أنجلو.

وجعل (فرنسيس) الذي عرف في موطنه في (بوينس ايرس) بلقب (قسيس الأحياء الفقيرة) لزياراته المتكررة للمناطق العشوائية، وكان الاهتمام بالفقراء في مقدمة أولوياته خلال فترة توليه منصب البابوية.

وما يقاس هذا الفعل، بما كان من إنسانية عمر وعاطفة عمر ومواقفه التي لم يكن لها مثيل في دنيا الناس، ولا في دنيا الإحساس، وإذا كان البابا قد اتخذ قراراً إنسانيًا من برجه العاجي، فإن عمر ﷺ تحرك بنفسه ففعل ما لم يكن في الحسبان.!

يقول أسلم مولى الفاروق رحمه الله: خرجنا مع (عمر بن الخطاب) إلى حرة، وأقم حتى إذا كان بصرار إذا نار، فقال: يا أسلم، إني لأرى هاهنا ركبًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان أيتام، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فقالت: وعليك السلام، فقال: أَدْنُو؟ فقالت: ادْنُ بخير أو دَعْ، قال: فدنا، وقال: ما لكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء، أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.

قال: رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟! قال: فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، فقال: احمله عليّ.

فقلت: أنا أحمله عنك، فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك، فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذري علي وأنا أُحَرِّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، ثم أنزلها فقال: ابغني شيئًا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم وأنا أَسْطَح لهم (أَي أَبْسُطه حتى يَبْرُدَ) فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيرًا، إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتني هناك إن شاء الله ثم تنحى عنها ناحية، ثم استقبلها فربض مربضًا، فقلت: إن لك شأنًا غير هذا، فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدءوا، فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

وفي رواية أخرى: يا أسلم، أتدرى لم ربضت حذاءهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي.

ولم يفت شاعر النيل أن يسجل هذه الحادثة النبيلة بنظمه الرفيع حيث قال:

ومن رآه أمام القدر منبطحا ** والنار تأخذ منه وهو يذكيها

وقد تخلل في أثناء لحيته ** منها الدخان وفوه غاب في فيها

رأى هناك أمير المؤمنين على ** حال تروع لعمر الله رائيها

يستقبل النار خوف النار في غده ** والعين من خشية سالت مآقيها

لقد أوصى الله تعالى بالأيتام خيراً، وعني القرآن بقضيتهم في وقت مبكر ونوهت الآيات بأمرهم فقال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) [1]

[1] - النساء:٣

وقال أيضاً: (لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ) البقرة : ١٧٧

وقوله تعالى (فَأَمَّا اليَتِيم فَلاَ تَقهَر) الضحى: ٩

قال ابن كثير: (فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم)

وقال تعالى ممتدحًا من يحنون عليه ويطعمونه: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)[١]

قال القرطبي: أي يطعمون الطعام على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له.

(ومما يلفت النظر أيضا أن الله سبحانه وتعالى ذكر لفظ اليتيم في القرآن الكريم ثلاثًا وعشرين مرة، وفي ذلك إشارة واضحة للمسلمين للانتباه والوقوف وقفة جادة أمام هذه الفئة وأمام احتياجاتها، والمشاكل التي قد تواجهها سواءً أكانت معنوية أم مادية أم اجتماعية أم غير ذلك) [٢]

وأراد رسوله الكريم أن تشفق قلوبنا، وتتولد مشاعرنا نحو هذه الشريحة المنكسرة الضعيفة، التي تفقد العائل والمعين.. فقد جاء إليه رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له: (إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وامسح برأس اليتيم)[٣]

وقال ﷺ : (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيْمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُما)[٤]

و عن بشير بن عقربة الجُهني قال: (لقيت رسولَ الله ﷺ يومَ أُحد فقلت: ما فعل أبي؟

قال: (استُشهِد، رحمةُ الله عليه)، فبكيت، فأخذني فمسح رأسي وحملني معه وقال: (أما ترضى أن أكون أنا أباكَ، وتكون عائشة أمَّك؟)[٥]

وعندما بلَغ النبيَّ ﷺ عن طريق الوحي، خبرُ استشهاد القادة الثلاثة في مؤتة؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رَوَاحة، انطلق ﷺ إلى بيت جعفر بن أبي طالب، قالت أسماءُ بنت عُمَيس زوجة جعفر: دخَل عليَّ رسول الله وقد دبغت أربعين منيئة، وعجنت عجيني،

[١] - الإنسان: ٨
[٢] - من مقال لدكتور /خالد النجار – موقع صيد الفوائد
[٣] - رواه احمد والبيهقي
[٤] - رواه البخاري
[٥] - حياة الصحابة، ص٤٩٠، ج٢.

وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظَّفتهم، قالت: فقال رسول الله ﷺ: (ائتيني ببني جعفر)، قالت: فأتيتُه بهم، فتشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك، أبلَغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: (أُصِيبوا هذا اليوم)، قالت: فقُمْت أصيح، واجتمع إليَّ النساء، وخرج رسول الله إلي فقال: (لا تُغفلوا آلَ جعفر من أن تصنَعوا لهم طعامًا؛ فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم)

وظلت هذه الوصايا خالدة في ضمير الأسلاف، فلم يعرف الأيتام أمة من الأمم قدر فيها أمرهم وعني فيها بحالهم، وأسبغت عليهم سحائب الرحمات كما وجدوا وعرفوا في أمتنا، ولم يحظ تراث شعب من الشعوب كما حظي تراث المسلمين من العناية باليتيم ورعايته والإحسان إليه، وها هو علي بن أبي طالب ﷺ حينما طعنه الغادر الأثيم، كانت وصيته الرائعة لولديه الحسن والحسين والتي لم يكن لها نصيب من متاع الدنيا وأغراضها، وإنما صبت كل تركيزها في الآخرة وسبل النجاة إليها، فمما قال لهما: (قولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة)

وتأمل بأي شيء كان الصديق منهم يوصي صديقه، ففيما كتبه أبو الدرداء ﷺ إلى سلمان الفارسي ﷺ: (يا أخي، ارحم اليتيم، وأدنه منك، وأطعمه من طعامك)

وقال كذلك محذِّرًا من دعوة اليتيم: (إياك ودعوة المظلوم ودعوة اليتيم، فإنهما تسريان بالليل والناس نيام)

وفي طبقات الحنابلة: توجه رجل بسؤال للإمام (أحمد بن حنبل) رحمه الله فقال: (كيف يرق قلبي؟) فقال الإمام أحمد: (ادخل المقبرة وامسح رأس اليتيم)

ورحم الله القائل وهو يحذر من ظلم اليتيم:

واتقوا الله في ضعاف اليتامى * وبما يُستحل غير الحلال

واعلموا أن لليتيم وليًا * عالمًا يهتدي بغير سؤال

ثم مال اليتيم لا تأكلوه * إن مال اليتيم يرعاه والي

ومدح أحد الشعراء رجلا مشهوراً بالعطاء والصدقة وبذل المعروف، والإحسان إلى اليتيم، وهو سعيد بن سلم فقال يرثيه:

كم يتيم نعشته بعد يتم ❊ وفقيرًا أغنيته بعد عدم

كلما عضت النوائب نادي ❊ رضي الله عن سعيد بن سلم

وكان ابن عمر رضي الله عنهما (إذا تغدى أو تعشى دعا من حوله من اليتامى، فتغدى ذات يوم فأرسل إلى يتيم فلم يجده، وكانت له سُويقةُ محلاة يشربها بعد غدائه فجاء اليتيم وقد فرغوا من الغداء وبيده السويقة يشربها، فناولها إياه، وقال: خذها، فما أراك غُبنت.)[1]

وروى أحمد في الزهد من طريق همام عن جار لهم يُكنى أبا يعقوب قال: (كان هاهنا رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: صُواب (بضم الصاد المهملة) كان لا يصنع طعامًا إلا دعا يتيمًا أو يتيمين)، ولما ولي (عمر بن العزيز) يرحمه الله الخلافة ازدحم على بابه الشعراء وكان منهم جرير، فلم يأبه بهم عمر ولم يلتفت إليهم ووافق جرير قدوم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي وكان ورعًا فقيهًا، فقال له جرير: اذكرني للخليفة، قال عون: إن رأيت لك موضعًا فعلت، فدخل عون على عمر فسلم عليه ثم حمد الله وذكر بعض كلامه ومواعظه، ثم قال: هذا جرير بالباب.. فأذن لجرير فدخل عليه، فقال يا أمير المؤمنين، إني أخبرت أنك تحب أن توعظ ولا تطرب، فَأْذَنْ لي في الكلام، فَأَذِنَ له، فكان مما قال:

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ❊ ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

أُذهبتْ خَلْقَتُهُ حتى دعا ودعت ❊ يا رب بارك لطر الناس في عمر

من يعدك تكفي فقد والده كالـ ❊ فرخ في الوكر لم ينهض ولم يَطِر

قال الراوي: فترقرقت عينا عمر، ثم جهز إلى الحجاز عيرًا تحمل الطعام والكسى والعطايا، يُبث في فقرائهم.

وفي البداية والنهاية: خرج ابنه وهو صغير يلعب مع الغلمان، فشجه صبي منهم فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا امرأة تقول: (إنه ابني وإنه يتيم فقال لها عمر: هوني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا، قال: فاكتبوه في

[1] - حلية الأولياء

الذرية، فقالت زوجةُ فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك؟! فعل الله به وفَعَل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال عمر يرحمه الله: (ويحك، إنه يتيم وقد أفزعتموه!)[1]

وفي حلية الأولياء روى (أبو عبد الله اليربوعي) قال: (نازعت عتبة الغلام نفسه لحمًا فقال لها: اندفعي عني إلى قابل، فما زال يدافعها سبع سنين، حتى إذا كان في السابعة أخذ دانقًا ونصف إفلاس فأتى بها صديقًا له من أصحاب عبد الواحد بن زيد خبازًا، فقال: يا أخي، إن نفسي تنازعني لحمًا منذ سبع سنين وقد استحييت منها، كم أعِدُها وأُخلِفها، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدانق والنصف، فلما أتاه به إذا هو بصبي، قال: يا فلان، ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلى، قال الراوي: فجعل عتبة الغلام يبكي ويمسح رأسه، وقال: قرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي في بطن هذا اليتيم، فناوله ما كان معه ثم قرأ: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

وقد وبخ الله سبحانه كفار قريش لتنكرهم لليتيم في قوله تعالى: (كلا بل لا تكرمون اليتيم)[2]

كما أمر عز وجل بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعدَّ نهبها ومساسها من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالى: (إنّ الذِينَ يَأكُلُونَ أَموالَ اليَتَامى ظُلماً إنّما يَأكُلُون في بُطُونِهِم ناراً وسَيصلَونَ سَعِيراً)[3]

وقال تعالى: (ولا تَقربُوا مَالَ اليَتِيمِ إلا بِالتِي هِيَ أحسَنُ حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ وأوفُوا بِالعَهدِ إنّ العَهدَ كَانَ مَسئُولا)[4]

وقال تعالى: (وأن تقوموا لليتامى بالقسط)[5]

وعدَّ الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات.. حيث قال: (اجتنبوا السبع الموبقات ومنها .. وأكل مال اليتيم)

ويسوق لنا الإمام (الذهبي) في كبائره قصة فيها موعظة وحكاية على لسان ذلك الذي أعطى ظهره للأيتام وأعرض عن حاجتهم فيقول: كنت في بداية أمري مكبًا على المعاصي وشرب الخمر،

[1] - البداية والنهاية لابن كثير
[2] - (الفجر: ١٧)
[3] -(النساء:١٠)
[4] -(الإسراء: ٣٤)
[5] -(النساء: ١٢٧)

فظفرت يوما بصبي يتيم فقير فأخذته و أحسنت إله و أطعمته و كسوته و أدخلته الحمام، و أزلت شعثه وأكرمته كما يكرم الرجل ولده بل أكثر، فبت ليلة بعد ذلك فرأيت في النوم أن القيامة قامت و دعيت إلى الحساب، و أمر بي إلى النار لسوء ما كنت عليه من المعاصي، فسحبتني الزبانية ليمضوا بي إلى النار، و أنا بين أيديهم حقير ذليل يجروني سحبًا إلى النار، و إذا بذلك اليتيم قد اعترضني بالطريق، و قال: خلو عنه يا ملائكة ربي حتى أشفع له إلى ربي، فإنه قد أحسن إلي وأكرمني، فقالت الملائكة: إنا لم نؤمر بذلك، و إذا النداء من قبل الله تعالى يقول: خلوا عنه فقد وهبت له ما كان منه بشفاعة اليتيم وإحسانه إليه، قال: فاستيقظت و تبت إلى الله عز و جل وبذلت جهدي في إيصال الرحمة إلى الأيتام.).

ولهذا قال أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ: خير البيوت بيت فيه يتيم يحسن إليه، و شر البيوت بيت فيه يتيم يساء إليه، و أحب عباد الله إلى الله تعالى من اصطنع صنعًا إلى يتيم أو أرملة وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم، و كن للأرملة كالزوج الشفيق، و اعلم كما تزرع كذا تحصد : معناه أنك كما تفعل كذلك يفعل معك، أي لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم أو امرأة أرملة..

وقال داود عليه السلام في مناجاته: إلهي ما جزاء من أسند اليتيم والأرملة ابتغاء وجهك؟ قال: جزاؤه أن أظله في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، معناه ظل عرشي يوم القيامة.

أما حكاية المرأة العلوية فكان فيها ما يدهش الألباب ويدعو النفوس للمسارعة في إكرام اليتيم، واقتناص فرص الخير وعدم التريث في أمرها حتى تضيع..كان أحد العلوين نازلا ببلخ من بلاد العجم و له زوجة علوية و له منها بنات، وكانوا في سعة ونعمة، فمات الزوج و أصاب المرأة وبناتها بعده الفقر والقلة، فخرجت ببناتها إلى بلدة أخرى خوف شماتة الأعداء، واتفق خروجها في شدة البرد، فلما دخلت ذلك البلد أدخلت بناتها في بعض المساجد المهجورة، ومضت تحتال لهم في القوت فمرت بجمعين: جمع على رجل مسلم و هو شيخ البلد، و جمع على رجل مجوسي و هو ضامن البلد، فبدأت بالمسلم وشرحت حالها له وقالت: أنا امرأة علوية ومعي بنات أيتام أدخلتهم بعض المساجد المهجورة و أريد الليلة قوتهم فقال لها: أقيمي عندي البينة أنك علوية

شريفة، فقالت: أنا امرأة غريبة ما في البلد من يعرفني، فأعرض عنها فمضت من عنده منكسرة القلب، فجاءت إلى ذلك الرجل المجوسي، فشرحت له حالها وأخبرته أن معها بنات أيتام وأنها امرأة شريفة غريبة، وقصت عليه ما جرى لها مع الشيخ المسلم، فقام و أرسل بعض نسائه و أتوا بها و بناتها إلى داره، فأطعمهن أطيب الطعام و ألبسهن أفخر اللباس، و بتن عنده في نعمة وكرامة.

قال: فلما انتصف الليل رأى ذلك الشيخ المسلم في منامه، كأن القيامة قد قامت، وقد عقد اللواء على رأس النبي ﷺ، وإذا القصر من الزمرد الأخضر ، شرفاته من اللؤلؤ و الياقوت، وفيه قباب اللؤلؤ والمرجان فقال: يا رسول الله لمن هذا القصر؟ قال لرجل مسلم موحد فقال: يا رسول الله أنا رجل مسلم موحد ، فقال رسول الله ﷺ: أقم عندي البينة أنك مسلم موحد قال: فبقي متحيرا فقال له ﷺ: لما قصدتك المرأة العلوية قلت: أقيمي عندي البينة أنك علوية، فكذا أنت أقم عندي البينة أنك مسلم: فانتبه الرجل حزينًا على رده المرأة خائبة، ثم جعل يطوف بالبلد و يسأل عنها حتى دل عليها أنها عند المجوسي فأرسل إليه فأتاه فقال له: أريد منك المرأة الشريفة العلوية و ناتها.. فقال: ما إلى هذا من سبيل وقد لحقني من بركاتهم ما لحقني، قال: خذ مني ألف دينار وسلمهن إلي فقال لا أفعل فقال: لا بد منهن فقال: الذي تريده أنت أنا أحق به و القصر الذي رأيته في منامك خلق لي أتدل علي بالإسلام؟ فوالله ما نمت البارحة أنا و أهل داري حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية، ورأيت مثل الذي رأيت في منامك، وقال لي رسول الله ﷺ: العلوية و بناتها عندك ؟ قلت: نعم يا رسول الله قال: القصر لك ولأهل دارك وأنت وأهل دارك من أهل الجنة.. خلقك الله مؤمنا في الأزل قال: فانصرف المسلم وبه من الحزن والكآبة ما لا يعلمه إلا الله، فانظر رحمك الله إلى بركة الإحسان إلى الأرملة والأيتام، ما أعقب صاحبه من الكرامة في الدنيا.!

نداء للأغنياء

لما صكت الدراهم.. صاح إبليس صيحة الفرح وقال لأتباعه:

(الآن وجدت ما استغني به عنكم، إنه المال الذي يفرق بين الإبن وأبيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه)

إلى هذا الحد الكبير كان المال سبيلاً من سبل الإغراء والإغواء، بل سلاحًا من أقوى أسلحة الشيطان لتمزيق الروابط البشرية؟! ولم لا؟ وهو الذي يغير النفوس، ويوغر الصدور، بل هو الذي إن تعلقت به النفس جردها من كل قيمة، ومحا عنها كل فضيلة، لتصير نفساً بهيمية، أبعد ما تكون عن الكمال، فتمتليء جوانحها بالأنانية وحب الذات، فلا تبالي بالمنكوبين والمحتاجين والمرضى والمتألمين، بل يجذبها تياره لتصل إلى درجة منكرة، فلا تبالي من أي طريق جاء هذا المال، أمن الحلال هو أم من الحرام؟!

وصدق الله تعالى في قوله: (وتحبون المال حباً جماً)

ولقد دعانا الله تعالى أن ننتصر على هذا المال، فلا يتوغل في قلوبنا حبه، ذلك الحب الذي لو أفسحنا له الطريق لتحول إلى شهوة موحشة، تهون معها كل قيمة في الدنيا، ويصبح الفرد منا لا عزيز لديه إلا الدينار والدرهم، فلا يرعوي لدين أو ضمير أو قيم.!

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1]

وقال حاثاً رسوله الكريم: (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً)[2]

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[3]

لقد رأى الفضيل بن عياض ولده يوماً وهو يمسح كفة الميزان بطرف ثوبه، فتعجب وسأله لماذا: فرد عليه قائلا: حتى لا أزن للمسلمين غبار الطريق، فبكى الفضيل وقال: إن عملك هذا يا بني عندي أفضل من حجتين وعشرين عمرة.!

[1] ـ البقرة:٢٥٤
[2] -(إبراهيم:٣١)
[3] ـ البقرة:٣

إنها التربية الرشيدة التي ساقت هذا الولد لهذه الدرجة الأنيقة من الورع، فيأبى ظلم الناس أو نهبهم من أجل المال والجشع في تحصيله، حتى ولو بالغبار، لأن الخوف من الله إذا ملأ القلوب ووجلت منه النفوس، كانت هي بذاتها حارسة لأمر الله في الصغيرة والكبيرة.!

إن الأثرياء في محنة عظيمة، لو أنهم تركوا أنفسهم يقودها الهوى ويأسرها حب المال، وقد شاء الله أن يزخر تاريخنا بأناس ملكوا الثروة، ولكنهم لم يهملوا أنفسهم لتكون ضعيفة هشة أمام لعاب المال الذي أنفقوه في سبيل الله بنفوس راضية وأيد منبسطة، وتأتي ذكراهم في الوقت الذي يمنع الكثيرون أموالهم عن المحتاجين، ليبذلوها على شهواتهم التي لا تشبع نهمتها ولا ترتوي غلتها.

يقول الشيخ (الغزالي) رحمه الله:

(إنه ليحز في النفس أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة في إشباع الشهوات، وتجف أصابعهم عن بذل شيء في حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف)

ويقول الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله: (إن الذي ينفقه الأغنياء على الترف والسرف يكفي لتعليم كل ولد في البلدة، وإطعام كل جائع، وإسعاف كل فقير.! إن عرساً واحداً من أعراس الموسرين الكبار تكفي لإطعام عشر عائلات شهراً كاملاً.! وما ينفق على أكاليل الزهر في الجنائز وطاقات الورد في الأفراح، يفتح كل سنة مستشفي مجانية للفقراء.! وأثمان علب الملبس في الموالد تنشئ كل سنة مدرسة تتسع لخمسمائة تلميذ.! وما تُشترى به هذه الثريات الفخمة وهذه التماثيل، وما ينفق في الولائم والحفلات، وما يصرف في الملاهي والموبقات يكفي لسد حاجة كل محتاج.!

وأنا لا أقول: دعوا هذا كله، فإنكم لن تفعلوا، ولكن اجعلوا من أموالكم نصيباً لهؤلاء المعذبين في الأرض، زكوا عن أموالكم فإنكم لا تدرون هل تدوم لكم أو تذهب عنكم ؟، وهل أخذ أحد على الدهر عهدًا أن لا تحول عنه الحال، وأن لا يذهب من يده المال، وإذا وثقتم ببقاء المال، فهل تثقون ببقاء الصحة؟! أتأمنون الأمراض والنوازل والنكبات؟ فاستنزلوا رحمة الله بالبذل، وادفعوا عنكم المصائب بالصدقات، إن الناس درجات أمَا تفرح إن أعطاك صاحب الملايين ألف ليرة؟ فأعط أنت المعدم عشر ليرات، إن الليرات العشر له كالألف لك، و الألف عند (المليونير) كالعشر عندك، و الثوب القديم الذي تطرحه قد يكون ثوب العيد عند أناس آخرين، فلماذا لا

تسرهم بشيئ لا يضرك و لا تُحس فقده؟ ولو كل امرئ يعطي من هو أفقر منه لما بقي في الدنيا محتاج)[1]

إن الفقر هوة سحيقة تعصف بالمجتمعات حينما تُنكب بها، وتصير بؤرة للجهل والمرض، وهو المناخ الملائم لكل أشكال الجريمة والفساد المادي والأخلاقي، حيث تنتشر الجرائم ويزيغ الفساد وتشيع العلل والأدواء، من السرقات والرشوة والفساد والإرهاب والنصب والاحتيال، ويتأخر العقل والرقي والتقدم، وتضعف الأخلاق والفضائل والانتماء للدين ورقابة الضمير، يحدث كل هذا حينما يسود الفقر منبت الرذائل والعلل.

هناك من الأثرياء من يهوى السياحة ويخرج لبلاد الله ليمتع عينه ويرى جمال الطبيعة والبلدان الغريبة، وهناك من يسيح ليرى طبائع الشعوب المختلفة ويغذى معارفه بالجديد والمجهول، ويتعلم ما كان يجهله، ويصور من المشاهد ما لم يقف عليه من قبل، كل هذا.. يسعى السائح إلى تحصيله، بينما لا نجد في السائحين من يسعى لتنمية شعوره الإنساني وإحساسه بإخوانه في البشرية، لماذا لا يتعرف السائح فيما يتعرف على مأساة الفقراء والمحتاجين في كل بلد يزورها، يرى ويشاهد هؤلاء المعذبين الذي تقهرهم ظروف الحياة ويعصف بهم الجوع ويضنيهم شظف العيش، فلم ينالوا ما نال غيرهم من بني الإنسان من حظوظ الدنيا.

لقد كان شوبنهاور من هؤلاء الذين يفهمون معنى السياحة الانسانية، وكان محظوظا بوالده التاجر الذي كان يجوب معه دولا عديدة، حيث زار معه في طفولته وشبابه هولندا وفرنسا وانجلترا وألمانيا وسويسرا وغيرها، مما ساهم في تكوينه المعرفي والإنساني، كان يزور المتاحف والمقابر الملكية وأماكن الأبطال والشعراء ويحضر العروض المسرحية وحفلات الموسيقى والرقص، كما كان يتكلم الانجليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية ويكتب بها بإتقان، كما كان يدون هذه الرحلات في يوميات جمعها بعد ذلك في كتابه (يوميات مسافر) لقد صور فيها كل ما شاهده، وكما قيل لم تكن ملامح الفرح والمتعة في السفر تثيره، أكثر مما تثيره ملامح البؤس والتعاسة والمعاناة التي يغط فيها كثير من البشر، لقد دون آرثر شوبنهاور زيارته لأحد السجون

[1] - من حديث النفس – الشيخ علي الطنطاوي

التي يقبع فيها ٦,٠٠٠ سجين، لا أمل لهم في الخروج منه، وقد قال عنهم: (أعتبر مصير هؤلاء السجناء أشد سوءا من الموت، لقد كانت قاعات النوم قذرة للغاية، تمرح فيها الجرذان والصراصير، ينام السجين على المصطبة التي يربط بها بالسلاسل، ولا يحصل إلا على الخبز والماء، هل يمكن تصور شعور المسكين، المثبت بالسلاسل على مصطبة لا يمكن أن يتخلص منها إلا بالموت؟ أو ما سيكون عليه المستقبل الذي سيواجهه عندما يكمل مدة عقوبته، أي بعد عشر سنوات أو عشرين؟ لا أحد يريد أن يعمل لديه سجين سابق، لذا يعود السجين إلى إجرامه وإلى السجن مجدداً)

لقد كان رسولنا العظيم أرحم بالناس من أمهاتهم وآبائهم، بل إنه آثرهم حتى على أهله وذويه، ففي ظل الأزمة المهلكة، يقدم القوت للفقراء والمساكين، ويمنعه عن ابنته وزوجها.. فاطمة التي هي أحب أهل الأرض إلى قلبه الشريف، ما أهمه جوعها وضيق عيشها حينما جاع الفقراء والمساكين.! وزوجها الذي فداه بنفسه يوم الهجرة، ما أهمه شعوره بالعجز وضيق حاله.!

عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين، فقال على لفاطمة ذات يوم: (والله لقد سنوت (أى استقيت من البئر) حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداي (أي تقطعتا من كثرة الطحن)، فأتت رسول الله ﷺ فقال: ما جاء بك أي بنيه؟ قالت: جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال على: ما فعلت؟ قالت: استحيت أن أسأله فأتيا جميعًا النبي، فقال علي: يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: لقد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبى وسعة فاخدمنا، فقال: والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، ثم قال ألا أخبركما بخير مما سألتمانى؟ قالا: بلى، قال: كلمات علمنيهن جبرائيل: تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، فإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا

ثلاثا وثلاثين مرة واحمدا ثلاثا وثلاثين مرة وكبرا أربعا وثلاثين، قال على ﷺ فوالله ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ) [1]

فما أروع العدالة وما أجل الفداء.! ولكنك ما أن تصرف بصرك عن هذه الصورة المثالية، لترمي بها في واقع الحياة حولك، حتى تنفجع قريحتك بالواقع المرير، فترى هؤلاء الجشعين المنهومين الذين ينهبون ثروات الشعوب وأقوات الناس ولا يشبعون أو يقنعون، يغترفون من حقوقهم ليل نهار بلا وازع من دين أو ضمير، يكنزون الذهب والفضة، ويستوفون أرصدتهم في البنوك، ويقتطعون الأراضي والمنتجعات، ولا يشعرون بمعاناة من حولهم، يفعل أحدهم ذلك، ليغني أبناءه ويسعدهم على حساب الملايين المنهوكة المعذبة، ويالها من قسمة ضيزى، حينما تهلك هذه الجموع الكبيرة، من أجل فرد أو فردين.!

وبقدر العظمة النبوية التي آثر فيها النبي ﷺ أهل الصفة على ابنته فاطمة وزوجها، بقدر عظمة علي ﷺ، الذي لم يغضب من فعل صهره أو يسخط على زوجه من فعل أبيها، فيقول لها: أبوك منعنا ولم يعطنا، كما يفعل الناقصون من الأزواج.

وإنما استجاب لفعله ﷺ ورضي بإيثار أهل الصفة الذين تطوى بطونهم من الجوع.!

إن الرجل منا قد يُبغض ولده لعقوق أو جفاء، فيكون تصرفه حياله بهذا الموقف، ولكن هل كانت فاطمة عاقة لأبيها أو كان زوجها يحرضها على خصومته؟ لا هذا ولا ذاك، فلقد كانت فاطمة أحب الناس إلى قلبه الشريف، وهي أم الحسن والحسين مهجة فؤاده وربيع قلبه.

وأما أبوهما فهو ربيبه، وأول من آمن به ونصره وفداه يوم الهجرة بروحه، وعرض نفسه للموت والهلاك دونه، ومع هذه الرتب العليا، والدرجات الشاهقة.. يمنعهم ويُعطى أهل الصفة الفقراء حتى يسد جوعتهم.

فما أرحمك يا رسول الله! وما أسعد المسلمين بك!

نعرف كثيرًا ممن تحكموا في رقاب العباد أصيبوا بالأنانية وحب الذات، فترى الواحد منهم يغني نفسه وأهله وأفراد عائلته وقبيلته على حساب الناس، فيترك الفقراء تقتلهم الحاجة، والمساكين

[1] - رواه البخاري ومسلم

يؤلمهم العوز، أما هو ومن يُنسبون إليه، فبطونهم متخمة من الغنى الفاحش الذي لا يشبعون منه أبداً.

بل ما أسعد الفقراء في ظل الإسلام! الذي حماهم ودافع عنهم، وجعل لهم هذه الأولية.

وكيف لا.. ودولته هي أول دولة في التاريخ قاتلت من أجل حقوق الفقراء، وأول دولة تجيش الجيوش لاستجلاب حقوقهم من مانعي الزكاة، لقد كانت الأمة التي عرف فيها التعساء معنى الحياة وقيمة الإنسان، إنها كانت أول دولة أقامت معنى الكرامة الإنسانية، ووجد المعذبون فيها نجاتهم وحياتهم.

ثقافة التطوع

يوماً بعد يوم تُطالعنا الأنباء والصحف عن أثرياء الغرب الذين يهبون أموالهم للعمل الخيري، يفعلون ذلك بدافع الإنسانية والضمير البشري، وربما لم يتوفر لهم ما توفر لنا كمسلمين من دين ونصوص تحث على البذل والعطاء والبر بالإنسان، شيء رائع أن تتأصل القيم الإنسانية بين الناس، وتقوم عليها حياتهم، وإلا تحولت حياة جافة قاسية.

إن الحكومات الرشيدة هي التي تسعى جاهدة أن توجد روح التطوع وثقافة البذل والعطاء وخدمة الآخرين في شعوبها، حتى توجد الترابط والتلاحم بين مواطنيها.

تخيل.. (المنظمات الخيرية في كل أقطار العالم العربي لا تتجاوز مجموع المنظمات الخيرية في ولايتين فقط من الولايات المتحدة الأمريكية! وقد تعدت المنظمات الخيرية في أمريكا مليون جمعية ومنظمة غير ربحية، كما نجد الكثير من المنظمات في الغرب قامت بسبب حادث ما؛ طفل مات بالسرطان فقام والداه بإنشاء مؤسسة لدعم أبحاث السرطان، شاب قتل بسبب الكراهية والعنصرية فيقوم زملاؤه بإنشاء مؤسسة للقضاء على العنصرية، هذه من الأمثلة البسيطة، أما الجمعيات الخيرية فعددها كبير ومهول.

فحسب بعض الإحصاءات في الولايات المتحدة: (١،٥١٤٠٠٠) جمعية خيرية، وفي بريطانيا فيها: (٣٥٠،٠٠٠) جمعية خيرية، وفي فرنسا فيها (٦٠٠،٠٠٠) جمعية خيرية.)[١]

وفي لقاء لي بمدير مكتب (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) في بريطانيا الأستاذ (بقاسم كحللش) أكد لي أن (اهتمام الغرب بالعمل الخيري كبير ومتطور، ففي بريطانيا على سبيل المثال يتم تنشئة الطفل الصغير في المرحلة الابتدائية على ثقافة العمل الخيري، حيث يتم التنسيق بين الجمعيات الخيرية والمدارس بكافة مراحلها، وتنظم مختلف هذه الجمعيات سلسلة محاضرات للطلاب لتعريفهم بنشاطها ودورها وطبيعة عملها، فمنها التي تساعد الأيتام، ومنها التي تساعد الفقراء والمحتاجين ومنها التي تساعد المرضى، ومنها التي تحافظ على البيئة، وفي نهاية المحاضرة يضعون صندوقًا كبيرًا ليقوم كل طالب بوضع جنيه في هذا الصندوق أحضره من والديه، ولعل هذا الأسلوب يعد نوعاً من التربية والتنشئة التي تؤصل للعمل الخيري في نفوس الأجيال التي تكبر وينمو في داخلها الشعور بالآخرين، والإحساس بهذا التوجه النبيل، وحب العمل الخيري والإنساني ، الأمر الذي يترك أثراً إيجابيا فاعلاً على المجتمع بأسره.

وكم كانت حماسة الأستاذ (كحللش) قوية وهو يتحدث عما يجده في بريطانيا، وقد دعا البلاد العربية والإسلامية أن تحذوا هذا المنحى، وتهتم بتفعيل ثقافة التطوع والعمل الخيري في حياة المواطنين وخاصة بين الأجيال الناشئة، حتى تدرك هذه القيمة المجتمعية كما أدركها الغربيون حينما نشأوا عليها أبناءهم، خاصة وأن ديننا وقيمنا تحثنا على ذلك وتأمرنا به.

لقد كان الناس سلفنا يغرسون في نفوس الناشئة حب الخير والبر بالناس والإحسان إلى المساكين والضعفاء، والبر بالمرضى والفقراء.

لقد كانت جَدة الكاتب (خالد القشطيني) تحكي له ما كان يتندر ويتعظ به في صغره، ومن هذه الحكاوى: أن لصا مجرمًا قتل ٩٩ شخصًا وأراد التوبة، قال له الشيخ: كيف يغفر الله لك بعد كل ما فعلت؟ ولكن اذهب للصحراء وانصرف للعبادة واطلب الرحمة من الله، خذ هذه العصا، واغرسها في الرمل، ستعلم أن الله قد غفر لك عندما تخضر وتينع، فعل ذلك وقضى الأيام

[١] - من مقال لفوزية الخليوي بتصرف

والشهور من دون نتيجة، يئس من رحمة الله وقرر العودة من حيث أتى، لكنه سمع صراخ امرأة تستنجد. هرع لمصدر الصوت فرأى رجلا يحاول اغتصابها، فكر في الأمر، لقد عاهد الله على التوبة وعدم التعرض لأحد، لكنه تحير أمام هذا المشهد، فكيف يترك هذا الرجل يغتصب هذه المرأة البريئة؟ قال لنفسه: لقد قتلت ٩٩ شخصًا، فليكونوا مائة شخص»، هجم على الرجل وقتله وأنقذ المرأة وقال لها: اذهبي ولا تعودي لهذا المكان، ثم عاد لمكانه، ويا للعجب! وجد العصا يانعة بالأوراق والزهور، لقد غفر الله له ذنوبه، فقالت له جدته: يا ابني ياخالد، عمل صالح واحد ينفع الناس يعطيك مرضاة الله ويمحو كل ذنوبك.!

والشاهد هنا أنه استمع من جدته التي كانت تروي له حكايات إنسانية ومشاهد خيرية أثرت في نفسه وطبعتها على الخير، وهو نفس ما وجده المفكر الكبير (مالك بن نبي) الذي وجد نفسه وهو في الطفولة يفعل فعل المحسنين نتيجة لتأثير الحكاوي التي تطرحها عليه جدته حيث يقول في مذكراته: (وفي ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من (الرفيس) وأخذت أقضمه بنهم ولذة، وفجأة سمعت بباب الدار سائلاً ينادي: أعطوني من مال الله، ولم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه.)

وهذه الرسالة الإنسانية لا تُسأل عنها الحكومات وحدها، وإنما يناط بها كل إنسان، وهو مسئول أن يغرس معانيها في وسطه الذي يعيش فيه بين أولاده وإخوته وفي البيت والشارع والمدرسة والسوق وفي كل الميادين التي يحتك بها الإنسان.!

كما تهتم الشركات في الغرب بتفعيل العمل التطوعي بين موظفيها، فتحت عنوان (لنتعلم من الدرس الكندي) كتب الدكتور (خالص جلبي): "مهندسو الكمبيوتر عملهم طقطقة الكي بورد والتحديق في الشاشات، كل نهارهم تذوي عيونهم وهم أمام شاشات تلمع، والظهور تحدودب، وطنين الأجهزة لا يتوقف بين نت وطباعة وماوس وحفظ وقص، هذا هو عمل التكنوقراط، وخبراء الكمبيوتر في العادة، ولكن شركة الكمبيوتر، خرقت هذا التقليد حين منحت الموظفين يوماً مدفوع الأجر للنزول من مكاتبهم، ومفارقة كمبيوتراتهم لينزلوا إلى الشارع متطوعين

مساعدين في العمل الاجتماعي، سألت محمداً الذي يعمل في الشركة ومقرها مونتريال ماذا عملتم هذا العام؟ قال ذهبنا إلى الحقول الخضراء، وتسلطنا على نوع من الشجر نخلص التربة منه لأنه يؤثر على شجر (القيقب) وزرعنا محله شجر (القيقب) كم كانت الغرسة؟ قال: لا، هي صغيرة ولا تحتاج لعمق كبير، كندا هي أم وأبو الغابات، وفيها من الأشجار جنتان مدهامتان. ومع أنها تحصد كثيراً منها، وبيوت الخشب واستعمالاته هائلة عندهم، ولكنهم لا يقطعون شجرة إلا وزرعوا بدلاً عنها خمساً، وهكذا فالبلد مغطى بثوب قشيب، رداؤه من سندس واستبرق، مذكرًا بجنة وعدها الله عباده المتقين كانت لهم جزاء ومصيرًا، قلت له: وفي العام الماضي ماذا فعلتم؟ بعد أن أقفلتم خلفكم الكمبيوترات؟ قال كلفونا أن نذهب إلى مدارس للأطفال فندهن الجدران والغرف، في المرة السابقة تعلموا الصباغة والدهان، والحالية تعلموا الزراعة والبستنة، إنها فكرة خلاقة أن ينتزع الإنسان من روتين عمله اليومي، ليعمل عملا جديدا مستحدثا، صباغا ونجارا وسباكا وعتالا وجزارا وبستنجي، هناك من يستهجن مثل هذه التصرفات، وأنها تضييع للوقت، وكيف تنفق الشركة المذكورة أجور يوم كامل، في عمل تطوعي لفائدة أناس لا يعودون عليها بالنفع، إنه فهم اجتماعي عميق عن تبادل الخدمات وبناء المجتمع."[1]

واستمع إلى هذا العمل الإنساني الذي حرك المجتمع الأمريكي وتفاعل معه الكثيرون، وكان له آثار جليلة القدر، ففي إحدى الأيام في عام ١٩٨٠م وفي ولاية (أريزونا) ذهب المفتش الجمركي (تومي أستين) ليزور أحد أصدقائه في إحدى المستشفيات، وبينما هو في ممر المستشفي، فوجيء بطفل نحيل يصرخ فيه وبشدة ويقول: أنا شرطي سأقبض عليك! ابتسم له (تومي أستين) وتعرف عليه، وأخبره أن اسمه (كريستوفر جيمس) فتوجه تومي وسأل عن حالته، فأخبروه بأنه يرقد في المستشفي مصاباً باللوكيميا بعد أن يئس الطب في شفائه، تحركت عاطفة تومي تجاه الطفل المسكين، وأدرك حسب صرخته، أنه يتمنى أن يكون شرطياَ ذات يوم، ولكنه أدرك قبل هذا أنه لن يحيا ليحقق هذا الحلم.!

[1] - صحيفة الشرق السعودية – من مقال لخالص جلبي ٢٠١٤م

توجه تومي إلى أصدقائه من الشرطة واتفق معهم أن يقوموا بزيارة مفاجئة لكريستوفر، وابتهج الطفل كثيراً لزيارتهم ، وقاموا بعد ذلك باصطحابه في جولة في الدورية، وجولة أخرى في الهيلكوبتر ووضعوا له شعار الشرطة على دراجته التي تعمل بالبطارية، وعلى جانب آخر تطوعت اثنتان من أفراد الشرطة ليخيطوا له بدلة شرطي توافق مقاسه وحجمه، وفي اليوم الآخر سلمت لكريستوفر شهادة موقعه (رسمية) ليكون أصغر شرطي متخرج من شرطة (أريزونا) ومنحوه الشعار الذهبي الذي يحمله الشرطة في أمريكا..وبعد ثلاثة أيام رحل كريس، ولم ينته دور الشرطة حتى في وفاته ، بل قاموا بتشييعه في جنازة عسكرية سار فيها أحد عشر ألف متطوع من شرطة أريزونا وغيرهم.!

وللمرء أن يعجب من هذه المشاعر الفياضة التي ملكت هذه القلوب! مما يمنحنا دلالة على كونها سمة مجتمع بأكمله، جبل أفراده على تكريم الإنسان واحترام مشاعره، وأعجب منه أن يقوم الآلاف من جهاز الشرطة بتأدية هذه المشاعر النبيلة، وهو الجهاز الذي قد يقسو بعض أفراده ويفقدون شيئاً من الرحمة واللين، بحكم وظيفتهم وممارستهم للعنف ضد المجرمين والخارجين عن القانون، ولكنها في ظل ذلك لم يفقد أفرادها معنى الإنسانية حينما حققوا لهذا الصغير البائس حلمه وأمنيته قبل أن يموت.!

وبعد أيام من رحيل كريستوفر بدأت الدعوة لمؤسسة باسم (ثمن أمنية) ابتدأت بـ ثلاثين دولار وصارت اليوم مؤسسة خيرية كبيرة لها ٧٧ فرعاً في الولايات المتحدة الأمريكية و٢٧ فرعا خارجها، تقوم على تحقيق أمنيات آلاف الأطفال الذين يهدد المرض حياتهم.

ولك أن تتصور كيف كانت بداية أشهر جامعة في العالم وكيف نشأت؟ إنها جامعة (ستانفورد) فقد حدث في عام ١٨٨٤م وفي مدينة بوسطن الأمريكية أن توقف القطار وخرج منه رجل وزوجته ذوا هيئة فقيرة وملابس رثة متواضعة، توجها سويًا إلى جامعة (هارفارد) الشهيرة ، وطلبا لقاء رئيسها دون موعد سابق ، وألحا في الطلب ولكن السكرتيرة تزمرت ورأت من هيئتهما البسيطة أنهما غير جديرين بلقاء رئيس الجامعة الذي يزخر وقته بالمشغولياتالهامة..ولكي تتفادى إحراجهما أبلغتهما أن الرئيس مشغول ولن يستطيع استقبالهما، فردت عليها السيدة مباشرة

وقالت: سننتظره إذن حتى يفرغ، ومن جانبها أهملتهما السكرتيرة حتى يصابا بالملل واليأس، ولكن ذلك لم يحدث، فهناك إصرار كبير على لقاء الرئيس، فلم تجد السكرتيرة وسيلة إلا أن تخبر رئيسها بلقائهم ولو لبضع دقائق قبل خروجه من مكتبه حتى ينصرفا لحالهما، ولكنه يرد عليها بأنه لا وقت عنده للقاء الفلاحين، فألحت عليه السكرتيرة وبالفعل قبل لقاءهما، وحينما دخل الزوجان إلى مكتب الرئيس قالت له السيدة: إنه كان لهما ولد يدرس في هذه الجامعة لمدة عام، ثم توفي في حادث، وبما أنه كان سعيداً خلال الفترة التي قضاها في هذه الجامعة العريقة، فقد قررا تقديم تبرع للجامعة لتخليد اسم ابنهما.

لم يتأثر الرئيس كثيراً بما قالته السيدة، فردّ بخشونة وقال:سيدتي، لا يمكننا أن نقيم مبنى ونخلد ذكرى كل من درس في هارفارد ثم توفي، وإلا تحولت الجامعة إلى غابة من المباني والنصب التذكارية، وهنا ردت السيدة: نحن لا نرغب في وضع تمثال له، بل نريد أن نهب مبنى يحمل اسمه لجامعة هارفارد، ولم يلق هذا الكلام أي صدى لدى رئيس الجامعة، فرمق بعينين غاضبتين ذلك الثوب القطني والبزة المتهالكة ورد بسخرية: هل لديكما فكرة كم يكلف بناء مثل هذا المبنى، لقد كلفتنا مباني الجامعة ما يربو على سبعة ونصف مليون دولار.!وهنا ساد الصمت لبرهة ظنّ خلالها الرئيس أن بإمكانه الآن التخلص من هذين الزوجين، حينما شق أسماعهم بهذا المبلغ الهلامي، ولكن السيدة استدارت نحو زوجها قائلة له:سيد ستانفورد: ما دامت هذه تكلفت إنشاء الجامعة كاملة، فلماذا لا ننشىء جامعة جديدة تحمل اسم ابننا ؟ فهز الزوج رأسه موافقاً، ثم غادر الزوجان (ليلند وجين ستانفورد) وسط ذهول وخيبة الرئيس، وسافرا إلى كاليفورنيا حيث أسسا هناك جامعة (ستانفورد) العريقة التي مازالت تحمل اسم عائلتهما وتخلد ذكرى ابنهما الذي لم يكن يساوي شيئاً لرئيس جامعة هارفارد.

وانطلقت بها الدراسة مطلع العام الدراسي الأول من عام ١٨٩١م في ذكرى وفاة الابن، واستمرت الدراسة فيها مجانية حتى توفي المؤسس عام ١٩٣٠، وقد حصل أكثر من أربعة وخمسين شخصاً من المنتمين لهذه الجامعة على جوائز نوبل، نظراً للتفوق العظيم الذي تقدمه للعلم البشري خاصة في مجالات التكنولوجيا.

وذكر تقرير هام نشرته الصحف: (أن المجتمعات الغربية تنبهت إلى أهمية ثقافة العمل الخيري فضمنتها مناهجها ومناشطها، حتى نرى أن طالب المرحلة الابتدائية هناك يهب إلى إحضار (علبة خضار) يتم إرسالها إلى أحد المجتمعات التي تعاني من المجاعة، كما أن الإحصاءات توضح أن ٢٢ مليون شخص يشاركون بالعمل التطوعي بشكل رسمي كل عام في المملكة المتحدة، وتبلغ عدد ساعات العمل التطوعي الرسمي ٩٠ ساعة عمل في الأسبوع وتقدر القيمة الاقتصادية للتطوع الرسمي بـ٤٠ مليار جنيه إسترليني سنويا، وتختلف دوافع العمل التطوعي بين المشاركين حيث أبدى ٦ من ١٠ متطوعين أسباب تطوعهم للحصول على مهارات جديدة ونصف المتطوعين استجابوا لنداء العمل والمساعدة، وأبدى ٩٠٪ من المجتمع الذي تنتشر فيه ثقافة التطوع اتفاقهم على حرص أفراد المجتمع على بعضهم البعض ورفض ٨٠٪ فكرة أن المتطوع أقل مهارة من الذي يعمل بالأجر، و بلغت قيمة المنح والبرامج التطوعية في بريطانيا ٥٠ مليار جنيه، أما في أميركا فقد بلغ عدد المنظمات غير الربحية ١,٥ منظمة ، ثلثاها خيرية، و٤٨٪ منها قائم على أساس ديني، وبلغت قيمة المبالغ المعطاة للمنظمات غير الربحية ١٧٤ مليار دولار، منها ٧٧,٣ مليار تأتي عن طريق أفراد.

وبلغ حجم التبرعات ٢١٢ مليار دولار عام ٢٠٠٢م، ٣٨٪ منها لأغراض دينية وبلغ عدد المتطوعين ٩٠ مليون في جميع الأعمال الإغاثية والدينية بواقع خمس ساعات أسبوعيا وفي كل التخصصات، وتضم رابطة الجامعات غير الربحية حوالي ١٠٠ جامعة أميركية منها تخصصات للعمل غير الربحي وتخصصات في العمل الخيري..ويعد العمل التطوعي في الغرب وفي أميركا وبعض الدول الآسيوية شريكا فاعلا للقطاع العام والتجاري في برامج التنمية بشكل عام، ويلعب دورا أساسيا في سد ثغرات القطاع العام، وفي الحد من تجاوزات القطاع الخاص وجشعه، وإذا قارنا العمل التطوعي في الغرب بالعمل التطوعي في البلاد العربية نجد أن أعداد الجمعيات التطوعية فيه لا تتعدى عدد الجمعيات التطوعية في ولايتين فقط من الولايات المتحدة)[1]

[1] - جريدة الوطن السعودية ٢٠١٥م

وجاء في إحدى الإحصائيات عام ١٩٩٤م التي تبرز اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالعمل التطوعي ما يلي:

- تطوع أكثر من ٢ , ٩٤ مليون شخص.
- كان معدل ما تطوع به الفرد الواحد ٢ , ٤ ساعة أسبوعيًا.
- مجموع عدد الساعات التي قدمها المتطوعون ٥ , ٢٠ بليون ساعة.
- كان معدل ساعات التطوع موازيًا لعمل ٩ ملايين موظف.
- بلغ مجموع ما تطوع به من وقت.. قيمة ١٧٦ بليون دولار أمريكي.
- وتقام هناك دورات وندوات عن أهمية هذا العمل، وألفت له العديد من الكتب ويسمى المتطوعون هناك «وعد الأمة» أو «مستقبل الأمة».

بل المذهل أن تجد هذه الاهتمام لتفعيل هذه الثقافة لدى اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة، ففي إسرائيل أكثر من ٣٥٠٠٠ منظمة غير ربحية، تفوق منظمات وجمعيات العالم العربي بأسره! فقد بلغت ميزانية المشروعات التي تدخل في هذا الإطار ١١ مليار دولار في السنة الواحدة.

أثرياؤنا المُحرَجون

قال الرئيس التنفيذي لشركة (فيس بوك) (مارك زوكربيرج) وزوجته إنهما يعتزمان التنازل عن ٩٩٪ من ثرتهما في أسهم فيس بوك، والتي تبلغ قيمتها حاليا نحو ٤٥ مليار دولار لصالح مؤسسة خيرية جديدة في رسالة لابنتهما ماكس التي أنجباها، ونشر زوكربيرج على صفحته على فيس بوك صورة عائلية مع زوجته بريسيلا تشان وابنتهما ماكس مع منشور بعنوان: رسالة لابنتنا.!

كما سبقهما تبرع رجل الأعمال البريطاني (بريان بوني) بمعظم ثروته لأعمال الخير، حيث بدأ بريان حياته من الصفر كصبي توصيل في بقالة، ثم عامل بناء، ثم تدرب كمهندس وأسس عمله التجاري في مجال الإنشاءات ثم البتروكيماويات، ثم كرس حياته لجمع المال.

عايش (بريان بوني) محنة زوجه التي عانت من سرطان الثدي مدة ستة أعوام، فرأى آلامها وعناءها، وبعد أن شفيت تركت هذه المعايشة أثراً في نفسه فصمم أن يبيع ضيعته التي تضم فندقاً فاخراً يضم خمسة وعشرين غرفة بمبلغ (١٦) مليون جنيه استرليني، وتبرع بالعائد لجمعية خيرية تعنى بضحايا السرطان.. وانتقل مع زوجته من الفندق الذي ظل يعيش فيه منذ عام ١٩٩٣م إلى منزل صغير جداً في (موربيث) في (نورثمبريا)

ويقول بريان: يعتقد رئيس حساباتي أنني معتوه ولكن لم تعد لي رغبة في الطوب والاسمنت والممتلكات، وكما تقول والدتي: فإنك لا تستطيع أن تنام في أكثر من فراش واحد، ولا قيادة أكثر من سيارة واحدة في كل مرة، وهناك أشخاص آخرين في حاجة ماسة للعون .

ويمضي بريان قائلا: (أتمنى أن أموت وأنا معدم، لقد أتيت إلى الدنيا بلا مال، وينبغي أن أغادرها بلا مال، إننا نعيش في مجتمع الكل يردد فيه "أنا أناأنا" وكان من المهم بالنسبة لي أن أفكر في الآخرين، إنني أرغب في مد يد العون لضحايا السرطان، إن حياتهم مؤلمة للغاية ولذلك فإنني أسعى إلى تسهيلها عليهم).

إن إحساس الرجل بآلام المرضى دفعه لهذا العمل الذي عده البعض جنوناً، ولكنه في حقيقته مثَّل معاني الإنسانية بكل عناصرها وقيمها، ما أكثر المتألمين في حياتنا! وما أكثر ما نقابلهم به من جمود المشاعر وتبلد الأحاسيس! غير عابئين بأناتهم وآهاتهم، وربما نُعذر في ذلك لفقرنا وقلة حيلتنا، ولكن ما بال الأثرياء؟ وكيف سيقابلون هذه المسؤولية؟

لقد دعى الملياردير الأمريكي (وارين بافيت) بمعاونة صديقه الملياردير (بيل غيتس) رجال الأعمال والأثرياء، للتبرع بأموالهم في حملة خيرية غير مسبوقة.. ولعل هذا شيئاً فريداً بعض الشيء خاصة وأن المال يدعو المال ، والذين يعيشون في كنفه لا يرون غيره وهو لهم كالماء والهواء، فغير معقول أن يتنازل الإنسان عن ماله الذي قضى حياته في جمعه، هكذاوفي غمضة عين!

ولكن، قبل الحكم على هذه الدعوة وأصحابها، تعالوا لنعرف كيف استقبلها مجتمع الأثرياء بأمريكا؟

لقد استجاب أربعون ملياردير أمريكياً وتبرعوا بنصف ثرواتهم للعمل الخيري، ومساعدة المحتاجين والفقراء، ومازالت الحملة مستمرة، وبعضهم لم يكتف بالنصف، وإنما فعل كما فعل (وارين وبيل) وتبرع بكل ماله.

تأتي هذه الحملة كأرقى عمل إنساني في القرن الحادي والعشرين، والتي انطلق فيها أصحابها من عميق إحساسهم بمسؤوليتهم المجتمعية تجاه الفقراء والمعوزين.

وما أروع أن تقوم مثل هذه الحملة في كل بلدان العالم! فيبرهن الأثرياء أن إنسانيتهم حاضرة متقدة، مهما شغلتهم الأموال والصراع عليها.

ولكم تمنيت في غمرة هذا الخبر الذي أثلج صدر الإنسانية، أن يكون مصدر هذه الدعوة من بلادنا العربية، ومن أثريائنا المسلمين الذين يجدون قرآناً يدعوهم للبذل والإنفاق، ودينا يوقظ فيهم مشاعر الإشفاق.

لا شك أن الدعوة أصابتهم بحرج شديد، لا يخرجون من حمرته إلا بدعوة مماثلة.

وها أنا ذا في كل صباح أتلهف صحفنا العربية لعلي أجد فيها نبأً عن أثريائنا، أو دعوة تحاكي دعوة (بافيت وغيتس) ولكن لا أجد.

ولا يزال الغرب مصراً على أن يقدم لنا كل يوم دروساً ومثلاً في الإيثار.!

فقد رمتنا الأنباء أن رجلاً بريطانياً يدعى (نيكولاس كراس) ٨٣ عاما، تبرع بالدم ٥٧ مرة، وأبدى مزيداً من الإيثار من خلال التبرع بإحدى كليتيه لشخص غريب، ليصبح أكبر بريطاني يفعل ذلك، وقرر نيكولاس وهو مدير مؤسسة خيرية سابق من هامبشاير، التبرع بكليته لهيئة الصحة الوطنية في بريطانيا بعد وفاة زوجته عام ٢٠١١، عندما وجد أن لديه المزيد من الوقت للعمل التطوعي.

إن الخبر يُجبر قارئه بتقدير هذا الفعل العظيم والغير مسبوق، كما أنه يدع العقل في حيرة مفرطة، يضرب سؤالاً على سؤال!، فالرجل لم ييأس، ولم تتبدد من ذاته روح العطاء، حينما رحل عنها الشباب، وإنما ظلت متقدة متوهجة، تستطيع أن تمنح وتُؤثِر، وتؤكد لصاحبها ما يريده من

شعوره بذاته وقيمته وحاجة المجتمع إليه، وأنه مازالت لديه القدرة ليقدم شيئاً للخير والإنسانية والفضيلة.

كثير من الناس حينما تُصيبهم هذه السن الطاعنة، يقول أحدهم في نفسه: لست مطالباً بشيء، ومهمتي أن أرتاح في هذه العمر الحرج، وأجد الرعاية والعناية، فما بقي من عمري أقل بكثير مما فات.!

لكن (نيكولاس)، كان بعيداً عن هذا العجز، رافضاً أي هاجس يقود لليأس، كما أن خاطره لم يحدثه بأنه كان يشغل مديراً لمؤسسة خيرية، وأنه قد أدى دوره ورسالته في العمل التطوعي، وتبرع بالدم ٥٧ مرة، وهو رقم لم ينجزه الكثيرون من البشر، لم يتسرب إليه شيء من هذه الخواطر المحبطة، لأن لديه إيمان قوي بقدرته على العطاء، وخدمة المسيرة الخيرية.

لقد كان مدهشاً أن يكون هذا الإيثار العظيم، والحدث الأخلاقي الفريد الذي قام به نيكولاس، لا ليفدي به قريباً منه أو محباً له!، وإنما لشخص لا تربطه به علاقة أو معرفه! وهو غاية الإيثار ومنتهى الشعور بآلام مجتمعه وظروفه ومشكلاته، وما يعانيه آلاف المرضى البريطانيين الذين يموت منهم ٣٠٠٠ كل عام لاحتياجهم الشديد لمتبرع يمنحهم كلية سليمة، تمد في أعمارهم وتذهب عناءهم وأوجاعهم.

ما أحوج المجتمعات لمثل هذه النماذج، التي تعطي وتمنح حتى آخر رمق من حياتها!

لم يعرف العالم أديبًا عذب نفسه من أجل الفقراء مثلما فعل (تولستوي)، فقد كانت له زوجة يحبها وأنجب منها ١٣ طفلاً وكانت هذه الزوجة مثقفة، تعرف عدة لغات ولها نتاجها الادبي وكتبها المطبوعة، وكانت شريكته في الثقافة كما كانت شريكته في البيت، يستشيرها في كل أفكاره وأعماله وخيالاته ويملي عليها مؤلفاته، حتى قال عنها يوما بامتنان: إنها الزوجة المناسبة تماما للكاتب.

وعلى الجانب الآخر كان (تولستوي) ثريا يملك ضيعة بها أراض شاسعة ورثها عن أسرته، يملكها بما عليها من فلاحين وعمال، وكانت هذه الثروة الضخمة هي الشرارة التي أفسدت حياته الزوجية، وأوجدت شرخاً كبيراً بينه وبين زوجته التي كانت بالأمس أحب الناس إليه!

كان (تولستوي) في شبابه يريد أن يوزع كل ما يملكه على الفلاحين والفقراء، ولكنهم ظنوا أنه يريد أن يخدعهم ويمكر بهم فلم تكن تلك عادة النبلاء في ذلك الوقت الذين لا يعرفون غير الاستعلاء والغطرسة ولا يشعرون بآلام الغير.! وأمام هذا الاستنكار عدل (تولستوي) عن فكرته إلى أن راودته الفكرة مرة أخرى وهو في سن السبعين، وأصر على تنفيذ ما أرجأه قديما فقد كان يحب البسطاء ويعمل مع الفلاحين في الأرض وكان يرتق حزاءه بنفسه، (لقد كان (تولستوي) فنانا ومفكرًا ولكنه قبل هذا كان إنساناً عميق الانسانية، وبعد أن قضى شبابا سعيدا، وفي لحظة باهرة من حياته، وقف يسأل: لماذا أملك الارض، ويجوع الفلاحون؟

لماذا آكل أنا في أطباق الذهب وهم لا يجدون ما يأكلون؟

لماذا يعملون هم في الأرض فتتشقق أيديهم ويشرب التراب من عرقهم وأقضي أنا حياتي في كسل شنيع؟!

وفي النهاية تصبح الثمار لي، كل الحصاد لم أزرع منه بذرة واحدة، ويجيء كعبد أجير لأستفيد منه وأستمتع وحدي؟ هل هو الفن الذي أكتبه سبب ذلك؟ إن الفن شيء تافه، إنه عبث وترف يفكر فيه الكسالى الذين لا يعرفون معنى الألم..وثار الانسان العظيم في قلب (تولستوي) على الإقطاعي ، وقرر أن يوزع الأرض على الفلاحين)[1]

ولكن زوجته التي كانت نعم الزوجة، وقفت في وجه رغبته لأنها كانت تخشى على مستقبلها ومستقبل أبنائها، وردت كل ما وزعه بالقوة من الفلاحين، وكان صراعا مريرا بينها وبينه، مما اضطره أن يسخط عليها ويفر منها، ويعيش وحده طريدا شريدا حتى مات.

وعودة أخرى لشخصية (بيل غيتس) ومحاولة جديدة للتعرف على الجانب الإنساني في نفس رجل من أغنى أغنياء العالم، وكيف استطاع في ظل المادة الطاحنة وانشغاله بالثروة والعمل، أن تتسرب إلى نفسه كل هذه المشاعر بالمبتيلن حتى ينفق عليهم ٥٩٪ من ثروته الضخمة؟ ففي حوار أجرته قناة (خدمة البث العام الأمريكية المستقلة) والتي حاولت في ضوء هذا اللقاء أن تظهر الوجه

[1] - تأملات في الانسان – رجاء النقاش

الإنساني والنبيل لبيل، وأن تبين كيف بلغت أحاسيسه نحو هؤلاء الفقراء والمرضى في العالم؟! وإلى درجة أن يتبرع بهذا النصيب الكبير من ثروته عليهم؟!

سأله المذيع اللامع (مويزر) عن مدى شعوره بهؤلاء المرضى وكيف يرى العالم من خلالهم؟

أجاب غيتس: لقد تولد لدي قليل من الإحساس بذلك من الذهاب إلى هناك والاجتماع مع هؤلاء الناس والتحدث معهم، ولذلك ما فكرت فيه هو: أين يمكن لثروتي أن تكون قادرة على أن يكون لها أعظم تأثير؟ وعندما شاهدت ابنتي -ذات السبع سنوات- شريط فيديو لطفل يعاني من صعوبة المشي بسبب شلل الأطفال، كان رد فعلها: (من هو هذا الطفل؟ أين يعيش؟ دعنا نذهب ونساعده، دعنا نذهب ونقابله. ماذا لو أصيب بشلل الأطفال في الساق الأخرى؟).

ركائز المصلحين

إن خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم، من أفضل القربات عند الله سبحانه وتعالى، ومن يقومون بهذه المهمة هم أخير الناس وأفضلهم، وهؤلاء هم المصلحون في حياة البشر، والمهتمون بهموم من حولهم ..والدعاة على المنابر وكل صاحب فكرة ودعوة، لا ينال مكانةً في قلوب الناس بالحديث والمنبر، دون أن يكون نشيطاً مؤثرًا في حياة الجماهير التي يبلغ بينها رسالته، فيقضي حوائجهم، ويحل مشكلاتهم، ويسعى لخدمتهم، وهذه هي الصورة الحقيقية للدعاة والمصلحين التي جهلها في هذا الزمان من يقوم على وعظ الناس وتقويمهم، خاصة دعاة الدين وعلمائه، الذين كان لهم في الماضي شأن يختلف عن شأنهم في الحاضر، فكثير من دعاة الدين يؤدون دعوتهم كوظيفة وليس لهم أي أثر في حياة الناس، ومن هنا، ترى الناس لا يتفاعلون مع دعوتهم ولا ينقادون لهديهم، لأنهم لم يستكملوا طريق الإصلاح من كل جوانبه.

إن البر بالناس وصناعة الخير، سمات أكيدة في المصلحين والأئمة الذين يغيرون حياة الناس وينتشلونهم من الجهالة إلى النور، ويضعونهم على طريق النهوض والرقي والقيم، والله تعالى يصف هؤلاء المصلحين من المسلمين بقوله:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)[1]

ففعل الخير كان ضرورة تصاحب الدعوة إلى أمر الله تعالى والهداية لدينه، وهكذا كان ﷺ حسب ما عرفنا من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في ردها عليه ﷺ حينما أتاه الوحي فأرادت أن تخفف عنه وتزيح من ريبته ، فأبرزت له معالم الخير في نفسه، وسمات الإصلاح في شخصه الكريم، فقالت له: (كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)، وهو دور الزوجة العظيمة حينما تساند زوجها في رسالته، وتدعم ثقته في نفسه، وتذكره بما قد غاب عنه، وتبرز فيه سماته القيادية التي تؤهله لحب الناس والمكانة من الله.

وفي حياة الرحالة الإسلامي الكبير (عبد الرشيد إبراهيم) ما يلفت إلى هذا المعنى، فعندما ترك قازان نظر إليها حزينًا وهو على ظهر السفينة، فهي البلدة التي أحبها، وكتب عليه فراقها، ثم يتعرف على رجل طرق بابه ودعاه للإفطار معه، وتناول الشاي فسأله الشيخ عبد الرشيد عن اسمه وبلده، فعرف منه أنه إمام قرية من ناحية جيستاي بولاية قازان، وبدأ الحديث بينهما فقال له عبد الرشيد: يا سيد منذ متى تقوم بالإمامة؟ فأجابه منذ ثمانية عشر عاماً، فقال عبد الرشيد: أرجو ألا يفهم كلامي على غير ما أقصد، فخلال السنوات الثماني عشرة، ماذا قدمت للحي الذي تؤم الناس فيه؟

ما هي خدماتك؟ لقد قدم لك أهل الحي طيلة ثمانية عشرة ما يكفي لمعيشتك وللإنفاق على عيالك، على كل حال كنت في وضع لم يطلع عليه أحد، لعلك كنت في أوقات طيبة، فما هي الخدمات التي قدمتها للحي مقابل خدماته.؟ حدثني عن المنافع التي جلبتها لهم!

فأجاب الإمام: لقد صليت على جنائزهم، وسجلت أبناءهم، وعقدت زواجهم، هذه مهمتي.!

فقال له عبد الرشيد: أنا لا أسألك عن الأمور التي قمت بها لمصلحتك، بل أقول ماذا عملت من أجل مصالح الناس؟ لنفرض أنه لم يكن في الحي مدرسة قبلك، فهل افتتحت مدرسة؟، أو بذلت

[1] -(الأنبياء:٧٣)

النصح لهم في المساجد، أو منعت عنهم فساد الأخلاق، أو كان أهل قريتك فقراء فشجعتهم على الكسب والارتزاق، فحسنوا أوضاعهم المعيشي؟ حدثني عن مثل هذه الخدمات.!

فقال الرجل : يجب الاعتراف بالحق، حتى الآن لم يحدث شيء من هذا، ولكنك أرشدتني، أؤيدك في هذا الرأي بصدق، سأقوم من الآن بوعظ الناس في المساجد، وأحضهم على الكسب والبحث عن الرزق بإذن الله، لقد محضتني النصح فجزاك الله خيراً، لقد شرحت صدري بكلامك الطيب)[1]

استغرق هذا الحوار نصف ساعة، تفتحت فيه أعين الرجل على آفاق كان يجهلها، وعرف ما غاب عنه من دورة الحقيقي تجاه من يصلحهم، ولم يوجهه الداعية الكبير إلى دورة الوعظي عبر الكلام فقط، وإنما وجهه إلى دوره الاصلاحي في حياة قومه الذين ينتظرون منه حماسة وصيحة، تنهض بهم في كل شؤون الحياة.

إن العمل الاجتماعي، من أعظم الأعمال الدعوية التي تؤلف قلوب الناس حول الدعاة، وتفتح لهم مساحة كبيرة من الحب والود، تجابه بها مساحة الكره والتشويه التي يشعل نارها ويؤججها أعداء الإسلام ومبغضيه، الذين يكيدون له ليل نهار، ويبتكرون في تدبيرهم، كيف يهدمون لبناته، ويوقفون مده، ويشوهون رجاله ورموزه.؟

إن العمل الاجتماعي هو الطريق الذي يمهد للدعوة ويشرح الفكرة، تقترب منه الجماهير فتعرفه وتحبه وتؤيده وتنصره، لأنه دائماً من يسعى لخيرها وبرها والسؤال عنها، بل لا يخفي أن هذا الجانب كان وراء صعود الصحوة الإسلامية الحديثة، ونمو تيارها بين الجماهير العربية، وهو ما أكدته باحثة أمريكية بجامعة (جورج تاون) الأمريكية حيث قالت: (إن الجماعات الإسلامية السياسية أكثر مصداقية من غيرها، بسبب التصاقهم بهموم شعوبهم في تنمية المجتمعات الإسلامية من داخلها.)

[1] - العالم الإسلامي في رحلات عبد الرشيد ابراهيم- تحقيق دكتور صالح مهدي السامرائي

(وقد رأينا أحد المجددين، لم يغفل أهمية هذا الجانب العمل الاجتماعي من دعوته وحركته فقد حظي بعناية بالغة، وجعله أحد أهدافها الأساسية، وكان ينشئ في كل شعبة قِسماً للبر والخدمة الاجتماعية، مهمته تنظيم فعل الخير، والدعوة إليه على كل صعيد.!) [1]

إن الداعية الناجح يتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم، ولا تغيب عنه كثير من أمورهم الفكرية والاجتماعية والنفسية، وهذه المعرفة تأتى من خلال العلاقات العامة والمعايشة والنشاط الاجتماعي.

(ومن جوانب المعرفة الضرورية والمفيدة معرفة أوضاع المدعو الاقتصادية، فإن كان فقيراً معوزاً كانت مساعدته من أهم القضايا التي تهم الداعية، وإن كان مريضاً كانت مواساته وإرشاده إلى الطبيب، وإن كان في نزاع مع أحد من أقربائه أو جيرانه، أو زوجته كان الإصلاح وجمع الشمل من أهم أعمال الداعية، وإن كان قد هضم حقه في وظيفة، أو عمل كان إنصافه ونصره من طموحات الداعية، وإن كان مسترشدا أو طالب نصيحة في دين أو دنيا كان الداعية حاضرا لكل إرشاد ونصيحة ممكنة، وإذا عجز عن ذلك فلن يُحرم من نصير من إخوانه يسد العجز ويفرج الكرب)[2]

وفي عام ١٩٤٧م دخلت (الكوليرا) وانتشر وباؤها في مصر وانتاب الشعب المصري الفزع والخوف، وأسرع أحد الدعاة المصلحين بتجنيد الشباب المسلم في جميع البلاد، للمساهمة في النشاط الطبي، وعزل الأصحاء عن المرضى والمساعدة في الإجراءات الصحية والتطعيم والتموين، وبعد إنقاذ البلاد من هذا البلاء، رأت وزارة الشئون الاجتماعية أن تقدم لهؤلاء الشباب الذين اشتركوا في هذا المجهود الكبير، مكافآت مالية تقديراً لجهادهم، ولكن إمامهم وداعيتهم رحمه الله رفض المكافآت باعتبار أنهم قد قاموا بواجبهم الإسلامي، الذي يفرضه عليهم دينهم وعقيدتهم ومشاعرهم الإسلامية، وهكذا يغتنم البنا هذه الظروف، ليعلن عن شمول الدعوة الإسلامية وإحاطتها وحركتها التي تشمل أمور المسلمين جميعاً)[3]

---

[1] - أين الخلل د- يوسف القرضاوي بتصرف

[2] - قواعد الدعوة إلى الله – د. همام سعيد ص ١٣٩

[3] - مواقف في الدعوة والتربية - عباس السيسي.

ويسجل الدكتور (سعيد إسماعيل علي) هذا الاهتمام من جانب إحدى الجماعات الدينية في مصر فيقول: (في عام ١٩٥١ – ١٩٥٢ كنت مفتوناً مع بعض الزملاء بحركة مصر الفتاة وزعيمها أحمد حسين، وفتحنا مقراً له في بلدتنا (المرج) ورحنا نملأ جدران بيوت القرية شعارات الحزب لكن الحق يقال: إن الإقبال على الانضمام إلينا كان باهتاً للغاية في الوقت الذي كنا نرى فيه (شعبة) الإخوان المسلمين، تمتلئ بالمريدين، فامتلأت قلوبنا غيظاً وحسداً، فماذا فعلنا؟

لم نقذفهم بالحجارة، ولا نثرنا عنهم إشاعات تسئ إلى سمعة هذا أو ذاك، ولا حرضنا الناس عليهم، وإنما - ونحن صغار في الصفوف الأولى من التعليم الثانوي القديم درسنا أسباب إقبال الناس عليهم - غير الدافع الديني- فوجدناهم قد أتاحوا لخريج طب حديث منهم، أن يستقبل المرضى في الشعبة، ليكشف عليهم بأجر غاية في الزهد، وكان هذا يحدث في القرية لأول مرة، فتقاطرت عليهم الناس.

وعقب حدوث زلزال ١٩٩٢م فوجئ أهل شبرا على ما أتذكر بعد ساعتين، – ربما- بخيام المساعدات قد نصبت لتقدم ما يحتاجه المتضررون، فانفتحت للمنقذين القلوب، كانوا من هيئة الإغاثة بنقابة الأطباء ، لكن، لأن معظمهم كان من الإخوان، سارعت الحكومة باستصدار أمر عسكري بحكم حالة الطوارئ، التي لم نعرف غيرها يحتم ألا يقوم أي أحد بتقديم مساعدات إلا عن طريق رئيس الوزراء، الحسد والغيرة أكلت قلوب المسئولين الحكوميين الذين عجزوا أن يقدموا للناس ما يحتاجون بهذه السرعة التي حدثت، فكان الأمر العسكري، ولو على حساب صحة وسكن ومصير مئات من المصريين، الإخوان يقدمون خدمات تخفف الجراح وتكسى العاري، وتطعم الجائع، وتأوي الهائم على وجهه في الطرقات)[١]

وعلى صعيد الأخوة الإسلامية كان حضور رائد الصحوة الإسلامية وجماعته حاضراً.. فمهما تباعدت الأوطان والبلدان، فإن رباط العقيدة يشد بين القلوب، ويوحد الغايات ويجمع المشاعر، فقد قامت سوريا تطالب بالحرية وجلاء فرنسا عن أراضيها، قبل انتهاء الحرب الثانية وانهزامها أمام الجيوش الألمانية، ولكن فرنسا ماطلت في وعودها، وأصرت على البقاء رغم انهزامها،

[١] - جريدة الدستور العدد السادس والستون ٢٠٠٧/١/١٧م

فقامت ثورة شعبية عارمة، قابلها المستعمرون بالمدفعية الثقيلة، ليسقط كثير من الجرحى والقتلى، وعلى أثر ذلك أرسل الملك فاروق بعثة طبية على رأسها طبيبه الخاص (أحمد باشا النقيب)، لمداواة الجرحى، وكانت لفته طيبة من الملك، وتجاوباً مع الشعور الوطني الذي غير جميع الشعوب العربية والإسلامية.

(وأدرك البنا بعاطفته الإسلامية، وإحساسه العميق وحدة المشاعر وشمول الدعوة وعاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة، وأن عليه واجباً إسلامياً تفرضه عقيدته، فقام بتجهيز بعثة طبية كاملة، وقامت طائرة تحملها إلى دمشق، وهناك شمرت البعثة عن ساعد الجد، ونزلت المساجد وجعلوا منها مستشفيات، وواصلوا الليل بالنهار في صبر وصمت وعاطفة جياشة بالحب نحو إخوانهم في سوريا.. ولاحظ الشعب السوري الشقيق، نشاط هذه البعثة التي تقوم بواجبها في غير ضجة ولا دعاية وفي حب وإخلاص وانقطاع للعمل الأخوي دون مظاهر أو إعلان.)[1]

وعلى ذات المعاني كان الإمام الجليل (أبو الأعلى المودودي) من أرق الناس أفئدة وعطفاً على الفقراء والمساكين والمحتاجين إذ لما أعلن عن قيام باكستان في ٣ يونيه ١٩٤٧م راح حزب المؤتمر الهندي يعبىء نفوس الهندوس والسيخ ضد الإسلام والمسلمين، ويصور لهم تقسيم الهند على أنه قطع لأوصال الهند وذبح لآلهة الهندوس، فإذا بهم يشنون غارات بربرية على أقاليم المسلمين، خاصة إقليم البنجاب، ويعملون أسلحتهم في رقاب المسلمين على نحو لم تشهد له البشرية مثيلاً، وظلوا من أغسطس لنوفمبر يرتكبون المذابح المروعة، ويسفكون دماء الكبار والصغار من المسلمين، ويقطعون الرقاب ويبقرون البطون، ولم يفلت منهم أحد .

وقضى التقسيم على أن تضم باكستان الأقاليم التي يسكنها مسلمون، فكان إقليم (جورداسبور) من نصيب باكستان، لكن نهرو كان طامعا في كشمير، وكان الطريق الوحيد الذي يربط كشمير بالهند يمر من (جورداسبور) ومن ثم أعلن بعد ٣ أيام من التقسيم ضم (جورداسبور) إلى الهند، وبعد هذا الإعلان راح الهندوس يهجمون بوحشية على المسلمين في قراهم، مما أدى لفرارهم إلى باكستان ولجأ منهم أكثر من ألف مسلم.

[1] - الحجرات:١٠

حينئذ كان دور الإمام (أبي الأعلى المودودي) كبيراً بين صفوف اللاجئين، فقد أقام معسكرًا لهم ورتب فيه الإقامة والمأكل والمشرب والرعاية وتدابير الأمن، وكان يقسم الطعام بنفسه بينهم، وكان يُعطي لنفسه نصيبًا مثلهم تماماً رغيفين في اليوم، كما نظم دوريات الحراسة حتى بدا المعسكر غاية في الترتيب والتنظيم.

وحدث أن حضر إليه أحد الضباط الكبار لأخذه للمنطقة الآمنة، لكن الإمام رفض أن يذهب وحده ليحمي نفسه ويترك هؤلاء المساكين يصارعون الموت، وفي ذلك الوقت حضر إليهم أحد أنصار الجماعة الإسلامية، ومعه مجموعة حراسة من باكستان وأخذ الأطفال والنساء إلى لاهور، وبعد أيام، استولى الجيش الباكستاني المعسكر، ورحل المودودي ورفاقه إلى لاهور ووصلوها ليلا في أغسطس ١٩٤٧م.

ولما وصل المهاجرون إلى لاهور كان هناك مبنى مخصص لهم لكنه أخذ منهم، فقرر الإمام عدم الاعتماد على ذلك، ونصب الخيام في الميدان العام وأقام الجميع فيها، وكان الشتاء على الأبواب والأمطار تغرق الشوارع فاقترح البعض أن يعطوا للأستاذ بيتا يأوي إليه هو وعياله فرفض، وألح عليه رفاق الهجرة أن يقبل ذلك حتى لا يعرض نفسه وأهله للخطر، لكنه أصر على الرفض، وقال: كيف أسكن في منزل ويسكن غيري في الخيام تحت السيول والأمطار، ونحن سواء، ليكن كل منا مع الآخر في اليسر والعسر، وفي الفرح والهم، ومكثوا تحت سيول الأمطار شهراً إلى أن وجدوا بعض البيوت ذات الإيجار الزهيد في حي (أتشره) فانتقلوا إليها، ثم أقامت الجماعة الإسلامية معسكرًا لإمداد المهاجرين، ووجه الأستاذ نداءه إلى كافة المسلمين ليقدموا إليهم ما استطاعوا من معونة، فجاءه الناس من كل مكان بملابس وبطاطين وأغطية وأموال وأدوية وحلي وطعام وكل ما يلزم للحياة.

إن خدمة الداعية للآخرين، وتلبيته لاحتياجات المحتاجين، تمكن لدعوته من القلوب، فيرى الضعفاء والمساكين والمرضي والمعوزين، إن هذا الداعية هو الذي يُمثلهم لأنه القريب منهم والقائم على حاجاتهم والشاعر بآلامهم، فالدعوة ليست منبراً لعرض الأفكار والنظريات، والداعية ليس (مذياعًا) يردد الأفكار المجردة فحسب، بل إن الدعوة والداعية، يجب أن ينتقلا

نقلة نوعية تجعلهما يعيشان هموم الناس، ويحملان بقسط وافر من هذه الهموم، وهذا الأمر ليس من قبيل الدعاية والمتاجرة والاستغلال، كما هو الشأن لدى الجمعيات التبشيرية وغيرها، وإنما هو مبدأ في صُلب المنهج الإسلامي لا يصح الإسلام إلا به، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)[1] وقال أيضاً: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.)[2]

في كثير من الأحيان تحوُل هموم الناس ومشكلاتهم بينهم وبين التلقي، وتصبح هذه الهموم والمشكلات سداً في وجه فكرة الدعوة، وكان من واجب الداعية أن يبادر إلى إزالة العوائق من طريق دعوته قدر المستطاع، وإلى فتح القنوات التي تصل بأفكاره إلى قلوب المدعوين وعقولهم.

والإيمان نفسه هو الذي يدفع الداعية أن يُحب لغيره ما يحب لنفسه، وهذا لا يكون إلا بالسعي في شئونهم وقضاء حوائجهم، والأخوة الإسلامية نفسها والتي تقوم على الحب في الله، لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع، ويتحقق نقلها من حيز الادعاء إلى حيز التطبيق، إلا من خلال المساعدة والمساندة والاهتمام والسعي وقضاء الحاجة.

وإذا كان رسول الله ﷺ يتبرأ من إنسان يبات شبعان وجاره جائع وهو يعلم، فهو أكثر تبرؤاً من إنسان يقدر أن يرفع الظلم عن أخيه، أو يقضى حاجته، أو يفرج كربه، أو يزيل همه، ثم لا يفعل؟ إن الداعية بحق هو الذي يعيش لسواه لا لنفسه، يدور حول مجتمعه وحول المسلمين وليس حول ذاته، وهو الذي يعمل على توفير الراحة للآخرين ولوعلى حساب راحته، هو الذي تسعده سعادة الآخرين وتُشقيه شقاوتهم، يرتاح إذا ارتاحوا، ويطمئن إذا اطمأنوا، ويسعد إذا سعدوا، فإذا قامت هذه الوشائج بين الداعية وبين الناس، تحقق الوصال والاتصال، وتحقق التأثر والأثر، ونجحت المهمة، وآتت الدعوة أكلها بإذن ربها.

ولقد كان من صفاته ﷺ أنه كان يجلس إلى الناس ويستمع لهم حتى وقع الظن لدى البعض وأشاع البعض الآخر من المنافقين، أن رسول الله (أذن) يستمع إلى هذا ويصدقه ويستمع إلى ذاك ويصدقه -أي تنطلي عليه الأمور- فنزل في ذلك قوله تعالى: (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ

[1] - رواه الطبراني في الكبير
[2] - رواه الحاكم في مستدركه والطبراني، وقال الألباني في الضعيفة - ضعيف جداً

هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(التوبة:٦١)

(إن من أسباب ركود الدعوة أو جمودها، اكتفاء أصحابها بالإطلال على الناس في المناسبات – بمكتوبات أو مقولات– والدعوة الناجحة هي الدعوة الموصولة بقضايا الناس لأنها ستكون عند ذلك موصولة بقلوبهم ومشاعرهم..إن الفكرة المجردة تدب فيها الحياة وتصبح قضية متحركة، إذا ما تجسدت في الحياة وطرحت على أرض الواقع، والفكرة تبقى نظرية وبعيدة ما لم ترتبط أو تحاكى واقعاً معاشاً ، أو بالتالي تكون معالجة مع هذا الواقع سلباً أو إيجاباً..)[1]

وشاب الدعوة عليهم واجبات عظمى تجاه المواطنين بكافة شرائحهم وأشكالهم، يحتكون بهم في كل مكان ويعاملون في حياتهم اليومية، لابد للشباب الرسالي أن يكون قائد الفكر والنهضة في الأمة، بل قائد الإصلاح والمتصدر لمشكلات الناس، لا بد لهم أن (يسهموا في تعليم الأميين حتى يقرؤوا، وفي علاج المرضى حتى يصحوا، وفي تقوية المتعثرين حتى ينهضوا، وفي مساعدة المتبطلين حتى يعملوا، وفي معاونة المحتاجين حتى يكتفوا، وفي توعية المتخلفين حتى يتطوروا، وفي تذكير العصاة حتى يتوبوا، والأخذ بيد المنحرفين حتى يستقيموا، وكشف المنافقين حتى يختبئوا، ومطاردة المرتشين حتى يرتعدوا، وإنصاف المظلومين حتى ينتعشوا، وما أكثر الميادين التي تحتاج إلى جهود الشباب، وعزائم الشباب، وحماس الشباب! انزلوا إلى الشعب واختلطوا به، وعيشوا في همومه، وشاركوه متاعبه، اربتوا على أكتاف المهمومين، امسحوا دموع اليتامى، ابتسموا في وجوه البائسين، خففوا الحمل عن كواهل المتعبين،أغيثوا الملهوفين، اجبروا كسر المكسورين، داووا جراح القلوب الحزينة، بموقف عملي، أو بكلمة طيبة، أو ببسمة صادقة)[2]

ويوم يتحقق هذا التلاحم بين الفكرة والشعب، تجد الفكرة من ينصرها ويدعمها ويشد من أزرها لأنها صارت محببة إلى القلوب قريبة من الأفئدة.

[1] - الاستيعاب في حياة الدعاة للأستاذ/ فتحى يكن.
[2] -الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف - القرضاوي

من هم العظماء؟!

العظماء اليوم في مقاييس الناس يختلفون عن العظماء في مقاييس القدماء، كان العظماء قديماً هم الأبطال الذين يهبون حياتهم لرفعة الأمة ومكانتها وعزتها، كانوا هم أولائك الذين يفنون أعمارهم نضالاً من أجل الناس وقضاء مصالحهم والدفاع عن قضاياهم، كانوا هم أولائك الذين يقودون حملة الإصلاح وتحرير الشعوب من الغاصبين المحتلين.

أما اليوم فإن ميزان العبقرية قد اختل، وانحرف معه مقياس العظمة في تقديراته واختياراته وانتقاءاته، لقد صار العظماء اليوم هم المطربون والراقصون والطبالون والملحدون، وكل منحرف في توجهه متنكر لأمته وتراثها ودينها وقيمها، لقد كان خدام الشعوب لهم المكانة الكبيرة في نفوس الرعية قبل الملوك والأمراء، لأنهم كانوا الأقرب إليهم حينما تبنوا مشكلاتهم وهموم حياتهم، وهذا ما حدث مع (باستير)؟

فمن هو باستير؟

منذ زمن كبير نشرت جريدة (الماتين) الفرنسية استفتاء لقرائها عن أعظم رجل خدم فرنسا، فتوالت الخطابات من كل ربوع فرنسا، وكان كل حزب يتسابق مؤيدوه في التصويت حتى يكون عظيمهم الذي اختاروه، له غلبة الأصوات في هذا السباق، وكان من المنتظر أن يكون (نابليون) هو الفائز بأكثرية الأصوات، لكن النتيجة كانت على غير المتوقع وعلى عكس المنتظر، فقد جاء باستير، وهو الشخص المغمور الذي لا يسمع به الكثيرون، في المركز الأول في التصويب في الاستفتاء، فماذا فعل هذا الباستير حتى يتفوق على نابليون، ويأخذ من نسبة الأصوات أكثر مما أخذ هذا القائد العظيم في عيون الفرنسيين والأوروبيين ؟!

لم يكن باستير من النبلاء أو الفرسان، أو من أفراد الأسر الشريفة العريقة، إنما كان كما قيل: رجل وضيع الأصل، ولكنه كان مثالا لأولئك الذين رفعهم العلم لمصاف القادة والزعماء وكبراء المجتمع، ولد (لويس باستير) في ٢٧ ديسمبر ١٨٢٢ لعائلة فقيرة تعمل في دباغة جلود الحيوانات في مدينة دول في فرنسا،كان الابن الثالث لأبيه (جان جوزيف باستير) وأمه (جان إتيان روكي)، عمل أبوه رقيبا في جيش نابليون ثم امتهن الدباغة، وكان لويس باستير طالبا متوسط المستوى في

سنواته الدراسية الأولى، ولكن برز نبوغه في الرسم والتصوير، حصل على درجة بكالوريوس آداب سنة ١٨٤٠ ودرجة بكالوريوس علوم سنة ١٨٤٢م من مدرسة الأساتذة العليا، وحصل على الدكتوراه سنة ١٨٤٧م أصبح باستير أستاذ كيمياء في جامعة (ستراسبورغ) .

أراد له والده أن يكون مثقفاً فأوفده إلى باريس بعد أن أنهى دراسته الإعدادية في (أربوي) كي يتابع تحصيله في دار المعلمين لكن المرض أقعده عن متابعة الدراسة، وبعد أن تعافي أرسله والده إلى الكلية الملكية التي تخرج منها عام ١٨٤٠ وحصل على ليسانس في الآداب، وكان يدرس الرياضيات في الوقت ذاته وحصل بعد عامين على بكالوريس في العلوم التي أولع بها رغم عدم تفوقّه في الكيمياء التي صمم أن يكون ذا شأن فيها.

وفي عام ١٨٤٦ حصل باستور على شهادة الأستاذية في العلوم الفيزيائية، وألحّ عليه بعد ذلك أستاذه (بالار) أن يبقى في باريس لتحضير شهادة الدكتوراه، وفي عام ١٨٤٧ حصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء، وكان موضوعها يتعلق بدراسة الاستقطاب الدوراني في السوائل، وفي عام ١٨٤٨ قدّم باستور إلى المجمع العلمي الفرنسي أول أبحاثه حيث عرف الميكروب وتوصل إلى مصل لمرض الكلب ، وعالج كروم فرنسا من وباء كاد يفتك بها وصنع لقاحا للجمرة الخبيثة ، وابتكر عملية بسترة اللبن وغير ذلك من الاختراعات النافعة والهامة في حياة البشر والتي أدرك الفرنسيون أن فائدتها لهم أجل وأكبر من معارك نابليون التي خاضها ليرفع لواء فرنسا ويعزز سمعتها الحربية ، ومن هذا التميز والانجاز كان باستور على موعد مع الشعب الذي أنصفه ورفع قدره فوق الزعماء والقادة حينما منحوه أغلبية الأصوات في استفتاء الماتين.

(إن العظيم يجب أن يكون هو الرجل الذي كسب للأمة حقوقًا لم تكن لها من قبل، هو الذي نظم للبلاد طرق الري والصرف ورفع مستوى الصحة، ولسنا نعين شخص هذا العظيم الآن، وإنما يجب أن نقيسه بمقدار الفائدة التي عادت من وجوده على البلاد، فإذا قيل لك: إن هذا الرجل أو ذاك عظيم، فاسأل ماذا فعل للبلاد وما هو الربح الحقيقي الذي جنته منه؟ ولو سئلت أنا هذا السؤال لأجبت بأن العظيم في مصر هو الذي ينجي الفلاحين من البلهارسيا والإنكلستوما، وهو الذي يعمم التعليم الحقيقي لا تعليم القرون الوسطى، وهو الذي يخترع لنا طريقة لعمل

الأسمدة الكيمياوية..فبلادنا مثلًا مفتقرة إلى الصناعة، نبيع قطننا كل عام بأبخس الأثمان، ثم نعود فنشتري بعضه بأرفع الأثمان، فالعظيم حق العظمة هو ذلك الذي يستطيع أن يعلم الفلاح كيفية غزل القطن ونسجه ويوجد في البلاد حركة صناعية تضمن لنا حياتنا الاقتصادية.)[1]

في حياتنا موازين غريبة مختلة، فالكثيرون يمجدون القادة المستعمرين والطغاة المحتلين الذين أذاقوا البشر خرابًا ودماراً وإزهاقاً للأرواح كهتلر ونابليون وهولاكو والاسكندر.! لقد أضاعوا ملايين البشر، وخربوا البلاد وحرقوا المدن، فهل هؤلاء يستحقون المدح منا أو أي نوع من التبجيل والتقدير.؟! هل يستحقون منا أن نصفهم بالعظماء؟

في تقديري أن العظماء الحقيقيين هم العلماء والأطباء والخبراء وكل من خدم البشرية، هؤلاء هم أولى الناس بتقدير الأمم، كما لا يمكن أبداً أن نتنكر للعباقرة المعروفين والمبدعين أمثال (فلمنج وأديسون وليسير وباتنجوويلسونجريتباش) ونتناسى جهودهم ونجردهم من قيمتهم الحقيقية، ونعلي عليهم من لا يتقنون إلا التعالي على البشر والتسلط على حياتهم.!

العظماء الحقيقيون هم من يكافحون الصعاب من أجل تحسين ظروف البشرية ويعايشون الألم والصراع كي تنجح جهودهم ويتحقق أملهم في إنقاذ الناس ، انظر لواحد من هؤلاء ..إنه عظيم حقاً بما قدم وبذل للفقراء والمحتاجين من بني وطنه ، إنه الأكاديمي الهندي (أشيوتا سامنتا) الذي ولد في (أوديشا) أفقر مناطق الهند ، نشأ يتيماً فقيراً يكابد شظف العيش ومرارة البؤس، لكنه استطاع أن يحول حياته وحياة الآلاف من الأطفال والفقراء نحو الأفضل، لقد أحاطت به ظروف قاسية ونشأ عصامياً، واستطاع أن يحصل على تعليم أكاديمي وواصل عطاءاته الإنسانية، لقد كان يسعى ويأمل إلى خلق عالم خال من الفقر والجوع والمرض والجهل، احتضن المعدمين من أبناء وطنه الفقراء، وعائلاته المعدمة المرهقة ، وحاول أن يوفر لهم فرص حياة متكافئة وشريفة.

وفي البحرين كان التكريم الإسلامي لهذا الرجل الذي أراد أن يعيش لغيره ، فوهب حياته لمن حوله، واستحق (جائزة عيسى لخدمة الإنسانية) واستمع إليه الحضور في حفل التكريم وهو يروي سيرته ومسيرته، فكان مما قال: (كانت أول خطوة لي على مسار الدرب الطويل، بين عامي

[1] - في الأدب والحياة – سلامة موسى - بتصرف

١٩٩٢م – ١٩٩٣م، حين قمتُ بتأسيس معهد كالينغا للعلوم الاجتماعية، الذي بدأ بـ١٢٥ طفلاً من أطفال أفقر القبائل، بدأنا في مسكن مستأجر، يشتمل على غرفتين، وباستثمار لم يزد على ٥٠٠٠ روبية (١٠٠ دولار تقريبًا)، ادخرتها مما كنت أتقاضاه من راتب متواضع نظير عملي الأكاديمي)

إن معهده اليوم يتعهد بتعليم أكثر من ٢٥٠٠٠ طالب، من أبناء القبائل الهندية الأشد فقرًا؛ يتعهد تعليمهم ويتولى أمرهم من رياض الأطفال، ويوفر لهم التعليم المهني والتدريب، ويزودهم بالمهارات الحياتية، ويوفر لهم السكن المجاني والمأكل والملبس والرعاية الصحية.

وكانالتعليم بالنسبة إليه حجر الزاوية في الخروج من كل المعضلات، يقول: (لقد عقدت العزم منذ فترة طويلة على مكافحة الفقر في المجتمعات القبلية الفقيرة، مؤمنًا بأثر التعليم والتدريب في تغير حياة الملايين، فقد شهدت تحولاً كبيرًا في حياتي بسبب ما توفر لي من فرص للتعلم، فأردت أن أمنح فرص متكافئة للأطفال الفقراء للحصول على التعليم والتدريب والمهارات اللازمة لتنمية حياتهم، وتمكينهم من كسب رزقهم)

يضيف سامنتا: (في طفولتي، كافحت من أجل لقمة العيش، وما زلت أكافح لإطعام الأفواه الجائعة، فالفقر والجوع ما زالا يكتسحان أطفال القبائل، لابد لي من أن أواصل المشوار والنضال من أجل الوصول إلى كل طفل محروم في العالم، حتى يتم القضاء على الفقر كليًا ومحوه عن سطح الأرض).

وتحت عنوان (لماذا أحب أديسون؟) كتب الأستاذ (فهد الأحمدي): (لا يمكننا الحكم على الأفراد من خلال المظهر أو المخبر، بل من خلال القيمة النوعية والإضافة الإيجابية التي قدموها إلينا، لا يمكننا الحكم عليهم من خلال الثروة والمنصب لأن القيمة الحقيقية للإنسان لا يمكن تمييزها قبل أن يخسر (الثروة والمنصب) ويصبح في حكم التاريخ، لهذا السبب أحترم علماء ومخترعين وأطباء خدموا الناس وأسعدوا البشرية وأنقذوا حياة الملايين، ولنفس السبب أكره فاتحين وطغاة من

شاكلة نابليون وهولاكو وهتلر والاسكندر الأكبر لأنهم على العكس تماما قتلوا الملايين، وشردوا الملايين، وسببوا البؤس للملايين.)[1]

إن أحد هؤلاء العلماء وهب لقومه ما يحلمون به وأعطاهم أمنية طالما عاشوا لها دهرا كبيرا، هذا الرجل هو اليهودي (حاييم عيزرا وايزمان) الذي وهب علمه لسعادة قومه اليهود، حين جعل المكافأة على علمه أن يحصل على وطن لقومه المشردين.. أتدرى ماذا قدم؟

لقد كان الرجل خيراً على قومه، واستطاع بعلمه أن يخدمهم، ويحقق حلمهم المنشود الذي يهيمون به ويرجون حصوله، لقد جعل من العلم وسيلة لقيام دولتهم (إسرائيل) متغاضياً عن أحلامه الشخصية، ومآربه الذاتية، وطموحاته النفسية، (كان يعمل أستاذا للكيمياء العضوية في جامعة (مانشستر) بانجلترا، وفي سنة ١٩١٦م اخترع طريقة لصناعة الأسيتون من دقيق الذرة، فأنقذ المجهود الحربي للحلفاء الذين كانوا حينذاك في حاجة ماسة لكميات كبيرة من ذلك السائل العجيب الذي يستخدمونه في إذابة (النتروجلسرين) وقطن البارود لصناعة مادة الكورادايت، المفرقعة الدافعة، التي يحشون بها الرصاص وقنابل المدافع، وهنا كان لابد من مكافأته، والتي حددها هو ولم تحدد له.!

أبى (وايزمان) أن يقبل مكافأة مادية ليشترى له ضيعة أو يبنى (فيلا) ينقشها بالزخارف والديكور المبهر، رفض ذلك كله وأعرض عن حظوظ النفس لأن إيمانه بباطل قومه كان عنده بمثابة العقيدة التي يلتزم بها ويضحى بكل الماديات في سبيل العمل لها.

وأصر في النهاية على أن تكون مكافأته مجرد وعد من حكومة بريطانيا العظمى لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، دون المساس بحقوق السكان الأصليين من غير اليهود، مجرد وعد وكانت البلية على العرب والمسلمين، هذا العالم اليهودي خدم ملته وعشيرته بما رأيت، لقد ذكر قومه ولم يذكر نفسه، وخدم عقيدته ولم يخدم شهوته، وتوسل بعبقريته العلمية ليجمع شتات أمته..)[2]

[1] - جريدة الرياض من مقال لفهد الأحمدي عدد ١٦٩٢٢

[2] - مستقبل الإسلام خارج أرضه: للشيخ الغزالي.

ولقد رسم الإسلام للحكام والملوك طريق العظمة الحقيقية حينما حثهم على العدل بين الناس، وحكمهم بالإنصاف والقسط وجعل من الحكم أمانة في أعناقهم يسألون عنه أمام الله سبحانه حيث قال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة:٤٢)

وقال: (إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَّ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)[١]

وقال تعالى: (إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..)[٢]

وروى مسلم وغيره: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.)

والمقسطين أي العادلين في حكمهم سواء كانوا حكاماً أو قضاة، وقد يدخل في معنى المقسطين من ولي على مال المسلمين ولم يأخذ أكثر من حقه فعدل، ونلاحظ عظم هذا الجزاء، حيث يُجعل هؤلاء على منابر من نور فيالها من منزلةٍ عظيمة وكبيرة.!

ويخبرنا ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر أولهم إمام عادل ، وقال عن الإمارة أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل.؟ وأخبر أن من ولي من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم، احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته وحاجته وفاقته وفقره، وبين كذلك أن فاقد العدل لا يدخل الجنة وأنها محرمة عليه حيث قال: (مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ إِلَّا أَغْلَقَ اللهَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ)[٣] وقال: (صنفان من أمتي لن تنالها شفاعتي، إمام ظلوم غشوم ، و كل غال مارق)[٤]

ولقد ضرب ديننا أروع المُثل في العدالة والإنصاف بين الناس، لتكون برهان العظمة لهذا الدين وعنوان العظمة للقائمين عليه ، ففي فتح مكة سرقت امرأة، وأراد الرسول ﷺ أن يقيم عليها الحدَّ ويقطع يدها، فذهب أهلها إلى أسامة بن زيد وطلبوا منه أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ حتى

[١] -(النساء :٥٨)
[٢] - (النحل :٩٠)
[٣] - صححه الالباني
[٤] - رواه الطبراني

لا يقطع يدها، وكان ﷺ يحب أسامة حبًّا شديدًا، فلما تشفع أسامة لتلك المرأة تغير وجه الرسول ﷺ، وقال له: (أتشفع في حد من حدود الله؟!). ثم قام النبي ﷺ فخطب في الناس، وقال: (فإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله (أداة قسم)، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها)[1]

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ذات ليلة على عادته يتفقد الناس، فمر برحبه من رحاب المدينة فإذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امراه وعلى بابه رجل قاعد فسلم عليه عمر وسأله من هو؟ فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين، فقال عمر: ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟ قال الرجل، وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين: انطلق (رحمك الله) لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك، فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر فأجابه: امرأة تمخض ـ أي على وشك الولادة ـ وليس عندها أحد، فعاد عمر إلى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي ﷺ: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب وما تحتاج إليه المرأة من دهن، وأن تأخذ معها قدرا وتضع فيه حبوبا وسمنا، فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت، وقال لامرأته ادخلي إلى المرأة وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به والرجل جالس لا يعلم من هو! وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت: بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام! فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه مع أمير المؤمنين، فكأنه هابه، فأخذ يبتعد عنه! وعمر يقول له: مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة، فلما أكلت ناول الرجل القدر وقال: كل ويحك فإنك سهرت الليل كله، ثم خرجت زوجته وقال للرجل: إذا كان غدا فأتنا نأمر لك بما يصلحك، فلما أصبح أتاه ففرض لابنه في الذرية وأعطاه.!

يقول الدكتور السباعي:(أما إني لا اعلم في كل ماقرأت من تاريخ العظماء، أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة)[2]

[1] - رواه البخاري
[2] - من روائع حضارتنا للدكتور السباعي

خدام لا حكام!

هل تعلم أن الغربيين ما تعلموا فكرة الحرية وسيادة الشعوب ومعاني الديمقراطية إلا من أمتنا؟! قد يكون هذا كلاماً غريباً، ولكنه الحقيقة، فقد (جاؤوا إلى بلاد الشام في الحروب الصليبية ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها، وأن الحكام لا تخضع لإشراف أحد غير شعبها، وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان أي طبقه إلا مجموع الشعب، وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى إذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني! فثاروا بعد رجوعهم الى بلادهم حتى تحرروا، ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت.

وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك، وأعلنت مبادئها التي لم تكن أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرنا! لقد اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام، وعن طريق الأندلس وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثوره ملك على رئيس دين ولا انتفاضه شعب على ملك ولا يجدون أن من حقهم أن يحاسبوا حاكما او ينصروا مظلوما، وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب، يذبح بعضهم بعضا كما يذبح الجزار غنمه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم ثم كان تحررهم،فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحرير العالم وإنقاذ الشعوب؟.)[1]

لقد جاء الإسلام لخلاص البشرية من الطغاة وقهرهم.. فقد كان العالم قبل مجيئه يئن بالظلم والجور وتعاني الأوطان المستضعفة من صولة المتكبرين، الذين أذاقوا شعوبها صنوف الأذى والهوان، كانت الفرس والروم يتربعان على عرش العالم القديم، فملؤوا الدنيا بالمظالم التي يحار الفكر في وصفها، وكان الأثرياء فيهم يسومون الناس شر العذاب، يريقون الدماء ويستعبدون الضعفاء، ويتصورون أنفسهم أنهم جنس أسما من غيرهم وأنهم شريحة مقدسة خلقت لتظلم وتقتل وتجور وتقهر، حتى ضجت الأرض وشكت إلى ربها من هول الانسان في حق أخيه الانسان.

[1] - آثار الحضارة الإسلامية في التاريخ- د. مصطفي السباعي

ولقد كان من وجوه العظمة في شخصية محمد ﷺ أن قدم للدنيا أناساً بهروا العالم وأعجزوا الدنيا في مناقبهم وما قدموه للإنسانية من قيم ومواقف ومثل عالية في العدل والرحمة والاخاء والمساواة..لقد تربوا على يديه ليربي بهم الدنيا ، ويعلم بهم الأمم..! استتطاع أن يصيغ من فكرة الاسلام أشخاصا يمشون على الأرض وطبع من المصحف كما قيل عشرات من النسخ ثم مئات وألوف، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب، وأطلقها تعامل الناس، وتأخذ منهم وتعطي وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام.

وما أروع القائل:

خَلَّفْتَ جِيلاً مِنَ الأَصْحَابِ سِيرَتُهُمْ ** تَضُوعُ بَيْنَ الوَرَى رَوْحًا وَرَيْحَانَا

كَانَتْ فُتُوحُهُمُو بِرًّا وَمَرْحَمَةً **كَانَتْ سِيَاسَتُهُمْ عَدْلاً وَإِحْسَانَا

لَمْ يَعْرِفُوا الدِّينَ أَوْرَادًا وَمِسْبَحَةً** بَلْ أَشْبَعُوا الدِّينَ مِحْرَابًا وَمَيْدَانَا

ويقف المتأمل حائراً أمام هذا الإعجاز ويسائل نفسه: كيف استطاع هذا النبي العظيم أن يحول رعاة الغنم إلى قادة للأمم؟! كيف استطاع أن يحول هذا البدوي إلى قائد عظيم يخطط ويسوس ويهدي ويرشد؟! كيف استطاع أن ينتشله من أوزار الجاهلية وأخلاقها الفاجر، إلى عالم السمو والفضيلة؟!

ولعل من أكرم وأجل ما علمهم إياه أن غرس في قلوبهم حب الناس وبر الخلائق.. وكيف لا، وقد أُرسل رحمة للعالمين؟ وكيف لا وقد جاء لخلاص المعذبين والمضطهدين والضعفاء والمظلومين؟ لقد وقف أحد رجاله أمام (رستم) قائد الفرس حينما سأله: ما الذي جاء بكم؟! فقال له: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة؛ ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

لقد علم الرسول الكريم رجاله أن يكونوا رحماء بالناس في زمن فقد معاني العطف والرحمة، ولم يعد يعرف غير القهر والقسوة والبطش، فجعل من مواطني الصحراء القاسية مثلا رحيمة راقي، وعلمهم أن يساعدوا الفقراء ويعطفوا على المساكين ويقضوا حاجة المحتاجين ويساندوا العاجزين والمكروبين.! علمهم هذا بعد أن أخرج من قلوبهم أنانية النفس وحظوظها، وشرك

الجاهلية وزورها، فكان الواحد منهم يُقدِم ما استطاع من نفسه وماله من أجل الآخرين، وكان أحدهم لا يقر له منام أو يستقر على جنبه هانئاً وله جار مهموم أو صاحب مكروب أو قريب محتاج.

لقد خدموا الإنسان، وعلموا الدنيا حب البشر، وكان قادتهم وأمراءاهم في مقدمة هذا السباق الإنساني، فرأوا أنفسهم خداماً قبل أن يكونوا حكاماً، فلم يكن لهم كبرياء الملك، أو عنجهية السلطان، أو خيلاء المنصب، كما كان في فارس والروم، وكما كان الحكام يصنعون لأنفسهم من هيبة وغرور.

فهذا (أبو بكر الصديق) ثاني اثنين إذ هما في الغار، كان معروفا بالتجارة، وبعث النبي ﷺ وعنده أربعون ألف درهم، فكان يعتق منها ويقوي المسلمين، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل ما كان يفعل بمكة، وكان عند العرب الأوائل عيب على المرأة أن تحلب الشاة، وكانوا يستقبحون ذلك منها، وكان الرجل من يقوم بذلك ، وإذا غاب الرجل الزوج أو الأب يحلب لهم الجار، فكان (أبو بكر الصديق) يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلما استخلف وصار أمير المؤمنين، قالت جارية منهم -يعني من نساء الحي- بعد أن صار أبو بكر خليفة: الآن لا يحلبها.. لقد صار قائد الدولة وخليفة المسلمين من يسير الجيوش ويتحمل المسئوليات، فهل يلتفت إلى غنمنا ويحلبها؟ الآن لا يحلبها، فسمع بذلك أبو بكر ﷺ فقال: بلى، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله.!

وكان عمر وما أدراك ما عمر، يؤتى إليه في زمن (الرمادة) بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يوما من الأيام جزورا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا فدر من سنام ومن كبد، فقال: أنى هذا ؟، قال: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرنا اليوم، قال: (بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام) ، قال : فأتي بخبز وزيت، قال : فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز ، ثم قال : (ويحك يا يرفأ ! احمل هذه

الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بشمغ ، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين ، فضعها بين أيديهم) [1]

ومَن مِن الحكام في زماننا من يفعل مثل ما فعل عمر! في هذا الموقف، يمنع أطيب الطعام عن نفسه ليفدي به رعيته، ويعتبر نفسه بئس الوالي إن قبل بهذا، وفي حياتنا اليوم حكام ينهبون ثروات شعوبهم بلاشبع أو قناعة، ينام أحدهم منتفخ البطن من زحمة الطعام بينما الفقراء في وطنه تفنيهم الأمراض ويسحقهم الجوع.!

ما أروعك يا عمر وما أجل مواقفك !!لم تعرف الدنيا حاكما في عدلك وحبك لرعيتك وإنصافك للمظلومين وشفقتك على الفقراء والمساكين..حتى سار بك الحال أن تحرم نفسك ليهنأ غيرك، فلا ينسى التاريخ هذا اليوم الذي رآك فيه (طلحة) ﷺ وأنت تدخل أحد البيوت ليلاً ، فلما تركته دخله ليتقصى الأمر، فإذا فيه عجوز عمياء مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى ! فقال طلحة لنفسه: ثكلتك أمك يا طلحة! عثرات عمر تتبع؟!

لقد كان إحساسه العميق بالمسؤولية يؤرق جفونه فلا تعرف النوم والقرار، وكان يعبر عن ذلك بقوله:(لو مات جدي بشط الفرات لخشيت أن يحاسبني الله عنها؟)

وقال: (لو أن بغلة بالعراق عثرت لظننت أن الله يسألني: لم لم تمهد لها الطريق)

وكان عثمان ﷺ أجود الناس وأكرمهم ، وما كانت ولايته للمسلمين إلا لصدارته وما كانت هذه الصدارة إلا لتاريخه الحافل والمشرف في الإسلام والمسلمين ، فهو الذي أفنى ماله ليقيم دولة الله وينصر رسوله ﷺ.

ومن آثار علي ﷺ أن جاءه يوماً أمينه ومؤذنه ابن النباح، فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر..ثم قام متوكئًا على ابن النباح، حتى قام إلى بيت المال فقال: هذا جناي خياره فيه كل جانٍ يده إلي فيه، يا ابن النباح علَيَّ بأشياخ الكوفة، قال: فنادى في الناس،

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد

فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين، وهو يقول: يا صفراء، ويا بيضاء غريّ غيري، ها، ها، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه، وصلَّى فيه ركعتين.

ودخل مرة بيت المال فرأى فيه شيئًا، فقال: لا أرى هذا هنا وبالناس حاجة إليه، فأمر به فقسم، وأمر بالبيت فكنس، ونضح فصلَّى فيه، أو قال فيه، يعني: نام.

وكان ﷺ يحسن إلى الفقراء على الدوام في الخفاء ، حتى لا يعلم بذلك أحد ، فلما توفي خرجت النساء الفقيرات باكيات يرددن :من ينفق علينا بعدك يا علي..!

وروي أنه كان يسقي بيده النخل لقوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه، ويتصدق بالأجرة، ويشد على بطنه حجراً.

وقال الشعبي: كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال: لا لسائل قط.

وقال عنه معاوية بن أبي سفيان ـ لمحفن بن أبي محفن الضبي، لما قال له: جئتك من عند أبخل الناس قال: ويحك! كيف تقول: إنه أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر – ذهب – وبيتاً من تبن، لأنفد تبره قبل تبنه؟!

ويُحكى أن ابنة (عمر بن عبد العزيز) دخلت علية تبكى وكانت طفلة صغيرة آنذاك، وكان يوم عيد للمسلمين فسألها ماذا يبكيكي ؟ قالت : كل الأطفال يرتدون ثياباً جديدة وأنا ابنة أمير المؤمنين أرتدي ثوبا قديما، فتأثر عمر لبكائها وذهب إلى خازن بيت المال وقال له: أتأذن لي أن أصرف راتبي عن الشهر القادم؟فقال له الخازن: ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ فحكى له عمر، فقال له الخازن لامانع عندي يا أمير المؤمنين ولكن بشرط فقال عمر و ما هو هذا الشرط؟ فقال الخازن أن تضمن لي أن تبقى حياً حتى الشهر القادم لتعمل بالأجر الذي تريد صرفه مسبقاً، فتركه عمر وعاد إلى بيته فسأله أبناؤه ماذا فعلت يا أبانا؟

قال: أتصبرون وندخل جميعا الجنة أم لا تصبرون ويدخل أباكم النار؟

قالوا نصبر يا أبانا.!

هؤلاء هم القادة الأول في تاريخ الإسلام، وهذه سيرتهم في حكمهم العادل الذي كان أحدوثة الأيام وأعجوبة الزمان، واسمع لأذناب الغرب وهم يطنطنون بالحديث عن عطف وإنسانية (جورج واشنطن) محرر أمريكا ويروون أنه مر ذات يوم في بعض شوارع المدينة التي سميت باسمه فيما بعد ، فرأى جنوداً يتجمعون حول حجر يريدون أن يرفعوه ولكنهم يعجزون ، وكان هناك ضابط يقف أمام هؤلاء الجنود يأمرهم ولا يساعدهم، فوقف واشنطن وقال له: أيها الضابط ساعدهم على حمله فرفض الضابط وقال : إني لا أتنازل إلى هذا ، فما كان من واشنطن إلا أن ألقى رداءه وساعدهم حتى استطاعوا رفع الحجر وحمله ، ثم قال لهم كلما احتجتم إلى مساعدة فاسألوا عن دار واشنطن.

إنه (جورج واشنطن) أبو الحرية الأمريكية المزعومة الذي كان يملك ثلاثمائة عبد وجارية في مزرعته الخاصة، ولم يحرر منهم واحداً قط!

وأمام من يهللون لهذا الموقف، فإن الحضارة الغربية التي تئن الدنيا من ويلاتها، لا يمكن أن تماثل فيما قدمت في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ما قدمه تراثنا وحضارتنا ورموزنا الذين كان الحكام فيهم خداماً لرعيتهم يسهرون ليلهم ونهارهم على راحتهم ومعاشهم، وإذا أراد العالم أن يضع ميثاقاً للعدالة ونموذجًا للحاكم العادل الشريف، فإنهم لن يأتوا بمثل ما قدمه عمر بن الخطاب في سيرته وعدالته وفناء ذاته في خدمة رعيته.

قدمت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر، تشكو واليه عمرو بن العاص الذي قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها، فيسأل عمراً فيخبره أن المسلمين كثروا حتى ضاق بهم المسجد وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخاله في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، وفي عصرنا الحاضر لا تمنع القوانين مثل هذا التصرف لكن عمر لم يرض بذلك، وأمر عمر ﷺ أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت.!

ويأتيه يوما شابٌ مصري قبطي يحمل شكوى من ابن حاكم مصر، العربي الشريف عمرو بن العاص، وقد سابق ابنه محمداً يوماً، فسبقه القبطي، فضربه ابن (عمرو بن العاص) وهو يقول:

(أتسبقني وأنا ابن الأكرمين، فيستدعي عمر الحاكم وابنه، ويناول القبطي الدرة ويقول له: (اضرب ابن الأكرمين) فيقتص القبطي من ابن حاكم بلده، ثم يقول عمر: (أدرها على صلعة عمرو، فما ضربك إلا بسلطان أبيه) ثم يلتفت إلى (عمرو بن العاص) وابنه ويعلنها مدوية خالدة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)؟!

ورأىﷺ مرة في السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة، فقال له : من أنت يا شيخ ؟ قال: أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهودياً من سكان المدينة .. فإذا بعمر ذلك الحاكم العظيم يقول له: ما أنصفناك يا شيخ، أخذنا منك الجزية شاباً ثم ضيعناك شيخاً، وأخذ بيده إلى بيته ففرض له ما كان من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول: افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله، ووضع الجزية عن فقراء أهل الذمة.!

هكذا كانت العدالة، ومع من؟ مع اليهود والمسيحيين الذين يدينون بغير الإسلام يا من تدعون للمواطنة، وحفظ حقوق الأقليات.!

يقول الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) رحمه الله: (من أتيحت له الفرصة لأن يكون مفيداً للآخرين وخادماً للجميع، ولم ينتهزها في إقامة العدل وإعلاء كلمة الله في أرضه وكسب النفوس وخدمة الآخرين وزيادة رصيده عند ربه وعند الناس ..فإنه يستحق الرثاء)[1]

فارس في ميدان الإحسان

فارس في ميدان الإحسان، هكذا كانت حياة هذا الإمام العظيم، والسمة البارزة التي عكست ما في نفسه من إيمان مطلق بهذه القيمة، والحب العميق في بذل الخير والبر بالناس، ما أجمل سيرته الزاهية! فبقدر ما كانت حياته علماً ودرساً وتجديداً ونضالاً وكفاحاً وثورة ونفياً وتشريدا وإصلاحاً، بقدر ما كان عملا متصلاً بميدان الإحسان، يمنحه من جهده وعطائه ووقته، تماماً مثل ما يمنح لفكره وعمله الوطني.

[1] - أرجوك أعطني عمرك –عبد الوهاب مطاوع

ولا أعرف روعة صيغت بها حياة الإمام في ميدان الإحسان والبر، كتلك التي صاغها أبي تمام في قوله:

تعوّد بسط الكف حتى لـــو أنه * دعاه لقبض.. لم تطعه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجـــاد بها.. فليتق الله سائله

أعلمت من الفارس المنشود والإمام المقصود؟

إنه ذلك الإمام الفذ، الذي قال فيه موقظ الشرق (جمال الدين الأفغاني) حينما ودعه أهل مصر ساعة نفيه ورحيله: (تركت فيكم محمد عبده، وفيه الكفاية لمصر) هكذا كان (محمد عبده)، وهكذا كان يقدره (جمال الدين).

لقد كان الإحسان إلى الفقراء والضعفاء، من أبرز السمات التي تميزه، تماما كما كان له تميزه العلمي، كان يطعم الجائع ويغيث الملهوف ويلبي الرجاء ويبذل المال، وكان بارًا كريمًا عطوفًا مانحاً، كان يفكر ليل نهار في أنواع البر والخير التي يسديها إلى الناس ويقدمها لهم.

ويصفه العقاد بقوله: (كان (محمد عبده) يحسن إلى صاحب الحاجة وهو في منفاه فقير لا مورد له غير مرتبه من عمله، وكان يحسن إلى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه، وكان يحسن إلى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج إلى ماله القليل، لتدبير علاجه ومعيشته في مقامه وسفره، وكان يحسن إليهم وهو في مرض الموت، ويموت وفي ودائع سره صدقات للمستعينين به لم يكن يُطْلِع عليها أحدًا من أقرب المقربين إليه)

وهنا يتحدث صديقه وحامل سره وأقرب الناس إليه، فيروى شيئاً من أخباره، روى السيد (رشيد رضا) في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) مما علمه من أخباره يوم كان منفياً ببيروت، أن صاحباً له توفي والده وليس عنده ما ينفقه في تشييعه، فأعطاه كل ما في حوزته من مال، وهو مرتبه الذي قبضه يومئذ من المدرسة السلطانية، ولولا أن رجلا في مصر أحسن الإمام إليه مثل ذلك الإحسان قبل نفيه – وفى له بدينه وحوله إليه على مصرف بيروت، لاضطر إلى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله.

وهذه هي صحيفة الصاعقة – كما ينبئ عنها اسمها– ليست من الصحف التي تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى؛ إذ كانت مرصدة للهجاء الاجتماعي، والنقد اللاذع، صادقاً أو غير صادق، وكان صاحبها يلقب بالحُطيئة الناثر؛ لأنه كان كالحطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس إليه، ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية، التي كان هو من العارفين بجدواها، فرثاه بمقال طويل افتتحه بهذا البيت:

اليوم نامت أعين بك لم تنم * وتسهدت أخرى فعز منامها)

ثم قال:(أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلئ برقاع امتلأت بحاجات الناس، فلا يرجع إلى داره، إلا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه، وكم نظر الله إليه في جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات إلى الفقراء والمساكين، ويعول أنفسا ماتت بموته اليوم، ولقد عرفنا نحن أناسًا نظروا إليه في جوف الليل يطرق عليهم الأبواب، ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة، وهو يقول لهم: إنه أمانة من جهات الخير يؤديها إليهم، ولا يعرفهم بنفسه، وكنا نسكن على خط المطرية التي كان مسكنه في ناحيتها فنسمع أخباره هذه مع أصحاب البيوت الكريمة التي فقدت عائليها، فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظلام إلا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته)[1]

وقد عهد أهله إلى تلميذه الحميم السيد (رشيد رضا) أن يرتب أوراقه عند سفره إلى الإسكندرية، فوجد في محافظ الأوراق صررًا من النقود مكتوباً على كل منها اسم من يراد إعطاؤه إياها، وسأله – وهو يعد العدة للسفر– عن الشاعر الكاظمي، فذكر له أنه مدين، فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه في نفقة السفر؛ لأن الكاظمي أحوج إليها.

(ولو عرفت هذه الصدقات المستورة التي كان يبذلها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدي خاصته إلى مستحقيها، لظهر أنها شغل حياة كاملة، تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغاً لعملٍ سواها، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التي كان يضطلع بها ولا تقبل

[1] - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م) - لمحمد رشيد رضا.

الإنابة عنه في أدائها، ومثل هذا الشغل بالإحسان، فضل نادر في حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثل شواغله، ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعوانه في أداء رسالته)

كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون إليه، ومنهم: حافظ، وإمام، والكاظمي، والشنقيطي (العالم اللغوي المشهور)، وهو الذي قال يرثي نفسه، ويذكر معونة الإمام له في غربته المنقطعة دون القادرين على المعونة في عصره:

تذكرت من يبكي عليّ فلـم أجد * سوى كتـــب تختان بعدي، أو علمي

وغير الفتى المفتي محمد عبده * صديقي الصدوق الصادق الود والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر، من أقوى المشجعات على طبع الكتب القديمة والحديثة، التي يعجز الأدباء عن الاستقلال بطبعها ونشرها، ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف على تصحيحها؛ لأنه أجزل الله مثوبته كان يتولى توزيعها على معاهد العلم، ويرسلها باسمه إلى مريديه من سروات الأقاليم وكبار موظفيها.

وقد تسلم من (حافظ) أكثر نسخ قصة (البؤساء) بعد صدور الجزء الأول، ثم أسلم حافظاً من ثمنها ما يكفيه سنوات، وهو الذي قال فيه:

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله * فأَصبحت أخشى أن تطول حياتي

ولما حلت الكارثة بالسودان، وعجزت الحكومة عن إنقاذ الموقف والإنفاق على اليتامى والأرامل؛ لنفاد المال، لم يقف الإمام عاجزاً أمام مريض يتألم، أو ذي حاجة منكوب، لقد تركت حملة السودان في هذا البلد جيشاً من الأيتام والأرامل والعاطلين، وجرحى الحرب والمنكوبين، لا عائل لهم، ولا مورد لمعونتهم، وأمسكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا الجيش الزاخر؛ لأنها اعتذرت بنفاد المال في نفقات الحملة، وعجزت الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها المحدودة؛ فبادر الشيخ (محمد عبده) وكان يومئذ قاضيًا بمحكمة الاستئناف، إلى تأليف هيئة خاصة لحصر ضحايا الحرب وتنظيم المعونة لهم، مما يتبرع به المحسنون، وتسهم به خزانة الأوقاف وغيرها من جهات البر والمساعدة، وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة

من كبار الأغنياء، وحرص على إحاطة هذه الهيئة بالضمانات (الرسمية)؛ لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحساب المتبع في دواوين الحكومة.

أما عن جهوده حينما احترقت مدينة ميت غمر في أوائل عام ١٩٠٢م فيقول العقاد: كان عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، ولا بين فقيرهم ولا غنيهم، في الحاجة إلى المأوى والطعام؛ فسارع الإمام إلى نشر بيان على الناس يصف فيه الحادث بقوله: (ليس الحادث بذي الخطب اليسير؛ فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورؤوس أموالهم، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين، حيث بذل الأستاذ الإمام من معونة الجمعية الخيرية الإسلامية، التي كان يرأسها يومئذ، كل ما تحتمله مواردها، وألف لتعمير البلدة وإغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال، وتحث الناس على إمدادها به في عواصم البلاد وقراها، وطاف بنفسه على بيوت الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة، يسألهم النجدة في حينها قبل فوات أوانها، واستخدم كل وسيلة على النّظْم في موضوع هذه النكبة، وفي طليعتهم شاعره حافظ إبراهيم الذي نظم فيها قصيدة قال في أولها:

سائلوا الليـــل عنهم والنـــهارا * كيف باتت نساؤهم والعذارى

أين طوفان صاحب الفلك يروى * هذه النار، فهي تشكوا الأوارا

لقد كان الشيخ (محمد عبده) رائد (الخدمة الاجتماعية) في وطنه، قبل أن تعرف في هذا الوطن وفي غيره مصالح الخدمة الاجتماعية، التي سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده، حتى يكون هذا الخير في مجاله الواسع عملا عاماً للمجتمع، يتعود عليه الناس، ويتكفلون له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه، وما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته، إلا كان من مشروعاته التي هيأ لها الأذهان، ومهد لها الطريق، تأمله رحمه الله حين مرِض مرَضَ الوفاة الذي لم يستطع أن يثنيه أو يشغله عن الإعداد لمشروع الجامعة المصرية والبحث في وسائل بنائها، وضمان الموارد التي ينفق منها عليها، حيث خاطب وزارة المالية في بيع عشرة آلاف من ملك الحكومة، ويسجل وقفها لعملية البناء، وهكذا في كل

المجالات الخيرية المتنوعة نجد الإمام سباقاً إلى المساهمة فيها، فقد كان رحمه الله يحمل هموم الناس، ويشعر بآلامهم، ويفني ذاته في خدمتهم، وهي أولى سمات القادة العظماء الذين أثروا في شعوبهم.)[1]

المثقفون في معترك الحياة

الفيلسوف والمثقف الحقيقي هو الذي يدرك واجبه نحو المجتمع ودوره بين الناس، وهو الدور الذي يفرض عليه أن يقبع في ميدان الحياة لآخر نفس من أنفاسه، يُصلح قدر ما يستطيع ويعارك هنا وهناك حتى تنتصر مبادئه.

وعندي أن المثقف الذي يعتزل الحياة ويهجر حياة الناس، هو تماماً كذلك الجندي الذي يفر من المعركة، وهو لا محالة خائن للأمانة التي استوعبتها نفسه من الثقافة والعلم والفهم.

وما أتفه هؤلاء الحالمون، وما أحمق ما جمح إليه خيالهم المريض.! فأحدهم يتأمل ويصمت برهة ثم يقول: إن أمنيتي في الحياة أن أنفرد بنفسي في جزيرة نائية بعيدة، أعيش بين أشجارها وثمارها وأشرب من عيونها، وأشاهد الشمس وهي تضرب صفتها صباحا، وأستمتع بالغروب حيث يرخي الليل سدوله على جنباتها، فأريد أن أرحل عن هذا العالم وأهله، فلا أتنفس هواءهم ولا أبصر مرآهم.

وهكذا جعلت منه الثقافة، وصيرته فوق الناس وغير الناس وضد الناس وكارهاً للناس.!

إن أحد هؤلاء المثقفين حدثتهم أنفسهم يوماً أن يترك الميدان ويأوي إلى بلدته في الريف، حيث السكينة والهدوء والفرار من الأعباء وراحة البال، إلا أن الرجل لم يفعل ذلك، ولم يطمع فيما تشتهيه نفسه، لأنه أدرك كمثقف أن لديه رسالة في الحياة، ولابد أن يؤديها بهمة ودأب حيث يقول: (إني أهتم بالدنيا ومصير الإنسان أكثر مما أهتم بنفسي، فالسعادة الإنسانية هي أن نهتم بالإنسان، كنت وأنا في سن الأربعين أو الخمسين، عندما كانت الحياة ترهقني بتكاليفها وأعبائها، أهفو إلى الريف وأحلم بالراحة والهناء في سذاجته، وأتمنى قضاء السنين الأخيرة من العمر فيه

[1] راجع المزيد من أخبار الامام في كتاب محمد عبده – عباس العقاد

حيث البساطة في كل شيء كما فعل (روسو) ولكني الآن لم أعد أسيغ هذا الحلم، هذا الفرار من أعباء الإنسانية، بل أصبح همي أن أزيد هذه الأعباء، بأن أستوعب مشكلات العالم وأدرس ثقافته، وأحس كلما زادت هذه المشكلات وتعقدت، أن مسئوليتي قد زادت أيضا.

والرجل المثقف الذي ينشد الريف وسذاجته وراحته، هو جندي فار من معركة الخير والشر التي يجب أن يعرف مكانه فيها، وقد كنت أيضا أفكر في هواية ما تخفف من جَد الحياة وضغط المسئوليات، بل لقد نصحت الشبان بأن يختاروا إحدى الهوايات ويتعلَّقوا بها، ولكني أحس الآن أن الهواية فرار آخر من الحياة، وأننا يجب ألا ننشد التسلية وتزجية الوقت بل ننهض بعمل إيجابي كفاحي لخير الإنسانية، وأصل الرغبة في راحة الريف، واتحاد الهواية، هو أننا ننشد عن جهل ما نسميه السعادة، ولكن هذه السعادة تخدر النفس، أما الهموم والاهتمامات فتنبهها، ولن نحس الحياة على أعمقها إلا حتى نكافح، من أجل الخير في العالم.)

هناك كلمات تشيع بين من يبحثون عن سبل السعادة في الحياة، كأن يقول أحدهم:

اهتم بذاتك، استمتع بحياتك، عش يومك، قدر ذاتك، أنت أولاً.!

وحينما طبقها من رددوها، فإنهم لم يجدوا السعادة ولم يستمتعوا بشيء منها، لأن السعادة لا توجدها الأنانية، والذين يعيشون لأنفسهم ولا يرون غير ذواتهم، تخلوا عن معنى الحياة الحقيقة، ولعل التجربة خير شاهد على ما نقول.!

دخلت امرأة يومًا على أحد المثقفين التربويين وهي تبكي وتعرض عليه أمرها عسى أن تجد عنده علاجاً، فقالت له: لقد غيرت نمط حياتي بعد حضوري إحدى الدورات التدريبية، فقررت أن تكون نفسي هي رقم (١) في حياتي، فغيرت صديقاتي وتركت تربية أبنائي للخادمة وأهملت زوجي، ومع هذا كله لم أشعر بالسعادة التي كنت أنشدها، فتعلق أبنائي بالخادمة وصار زوجي يبحث عن امرأة أخرى، وظللت أجعل نفسي أولا ولكني ما زلت لا أشعر بالراحة والسعادة، وبعدها دخلت دورة ثانية لأعالج مشكلتي وأغير نفسيتي لأكون سعيدة، فتعلمت في الدورة أن أكافئ نفسي وأشرب القهوة لوحدي، وأعمل مساج لجسدي وأسافر لبلد لم أزرها من قبل، وقد عملت كل هذا وما زلت غير سعيدة، فلا أعرف ماذا أفعل؟

فقال لها: إن الذي يتحدثون عنه في الدورات المترجمة، يصلح لمجتمع مختلف عن مجتمعنا، وهو مجتمع يؤمن بحياة واحدة وهي الدنيا، ولا يؤمن بالحياة الآخرة، ولهذا يرددون (عش يومك) ويتغنون بـ (استمتع بحياتك) ويعلنون شعار (أنت أولا) أو (اهتم بذاتك) لأنهم يرون فقط حياة واحدة وهي الدنيا، بينما نحن نرى الدنيا هي مقدمة لحياة أخرى سماها القرآن (دار الحيوان) قال تعالى: (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) يعني هي الحياة الدائمة والخالدة والباقية.

فمن كان يؤمن بالحياتين الدنيا والآخرة ، فإنه لا يستطيع أن يطبق الكلام الذي يتردد بالدورات واللقاءات وهو إعطاء الأولوية للنفس مع إهمال حقوق الوالدين والأهل والإخوان والأصدقاء، فإن الذي لا يؤمن بالدار الآخرة عندما يتحدث عن الاهتمام بالذات، فهو يتحدث بكلام يتناسب مع ثقافته وحياته، لأن الشخص الأجنبي عندما يبلغ عمره ١٥ عامًا يستقل عن والديه ولا يتواصل معهما إلا بالأعياد والمناسبات فقط، فتكون نفسه رقم واحد في الحياة وهمه إسعادها، أما الذي يؤمن بالله ورسله وكتبه فإن عليه التزامات وواجبات تجاه والديه وأهله وأصدقائه وحتى جيرانه، فالمعادلة مختلفة بيننا وبينهم.

قالت المرأة: لقد لفت نظري لأمر لم أفكر به سابقا، بل إني تعلمت في الدورات أن لا أساعد شخصًا لا يستحق المساعدة، ولا أهتم بشخص لا يبادلني نفس الاهتمام، ولا أخدم شخصا لا يقدر خدماتي له إلا لو رد إلي الجميل.

فقال لها: فأين العمل لله تعالى ونيل الثواب إذن من هذه الأعمال؟ نحن لسنا مغفلين ولا ساذجين ولكننا كذلك واعون ونعرف متى نقدم الخدمة للناس بالوقت الصحيح، على أن يكون عملنا في الأساس من أجل الله وليس من أجل الناس، فنحن لا ندعو لعدم المبالاة، ولا نلغي الاهتمام بالذات، لأنها من صميم ديننا، ولكننا نشجع التوازن في التعامل مع الذات، فنكتشف ذواتنا ونهتم بها ونقدرها ومع هذا لا نهمل واجباتنا تجاه أهلنا ومجتمعنا..

إن ديننا يشجع على ثلاثية العلاقات وهي: (إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا)، فالأصل أن نحقق المعادلة بين العلاقات الثلاث (العلاقة بالخالق، والعلاقة بالمخلوق، والعلاقة مع الذات) فنحن نعطي للذات ثلث الوقت في الحياة الدنيا وفيها نقول:

استمتع مع نفسك، العب رياضة، وتناول القهوة، وشاهد فيلما، وارسم لوحة، واعمل مساجاً، ونم مرتاحاً، ولكن بقي ثلثان ينبغي أن لا نهملهما، وهما الأول العلاقة بالخالق وفيها العبادة والمعاملات والتزامات كثيرة مبينة في الفرائض والسنن، والثاني العلاقة بالناس والمخلوقين ومنها الأهل والأقرباء والزوج والأبناء وفيها كذلك التزامات أخرى.

وأمام هذه الردود الواعية قالت المرأة: أعجبتني هذه الثلاثية التي لم أسمعها بالدورة التي حضرتها، ثم قالت: وما رأيك بما تعلمته كذلك وهو أن (لا أكون شمعة تحرق نفسها لتنير الطريق للآخرين؟

قال لها: إن الذي علمك هذه الجملة كان عليه أن يفرق بين أمرين: الأول ربما أنت سعادتك في أن تضحي بوقتك ومالك لخدمة الناس وإسعادهم، ففي هذه الحالة ستكونين سعيدة عندما تحرقين نفسك من أجلهم، والثاني يعتمد من هم الآخرون! فلو كان والدك أو والدتك إلا يستحقان أن تحرقي وقتك ومالك وصحتك من أجلهما؟ قالت له: كلامك صحيح وأنا لم أفكر بهذه التفاصيل، فقال لها: بل نحن في معتقدنا أن نحرق حياتنا من أجل الله تعالى لأن الحياة الحقيقية هي الآخرة، وإلا كيف تفسرين من يقدم نفسه وروحه لله ويكون شهيدا؟!

سكتت المرأة وأخذت تفكر فيما قاله لها الرجل المثقف، وبينما هي في صمتها قال لها: والآن اهتمي بذاتك وزوجك وأهلك وأولادك وابتعدي عن أكذوبة (إن الاهتمام بالذات يكون على حساب الأولاد والبنات)، فنحن لم ننجبهم من أجل أن نتركهم، بل أنجبناهم ليكونوا خلفاء بالأرض، ويتحملوا أمانة تبليغ الرسالة وهذه تحتاج منا لجهد ووقت وتضحية وتعاون حتى نؤدي الأمانة، فارجعي لبيتك وخططي لدنياك وآخرتك واهتمي بنفسك وصحتك وإيمانك ستكونين سعيدة بحياتك.

وكان الأستاذ (توفيق الحكيم) ممن يستخدم فنه وإبداعه وثقافته في إصلاح الحاكم، ومحاولة نصحه وإرشاده حينما كان يراه يدهس الديمقراطية ويجور على الحرية ، ويمعن في قهر الشعب ، ويحاول تقديس ذاته ..كان يمكن للحكيم أن ينأى بنفسه عن هذا المسلك الوخيم، ويعيش مع قلمه فيما يستطيع صياغته من مسرحيات الهوى والغرام والفكر والأدب والكتابات الدرامية التي

تناقش أحوال الناس ومشكلات المجتمع المصري، لكنه كمثقف وضع يده على أصل الداء، ووجه كلمته وفنه للحاكم، ولكن بطريقة غير مباشرة، لقد جسد في كتابه (عودة الوعي) مرحلة التيه التي غرق فيها الشعب المصري، وفقد فيها وعيه إلى أن عاد إليه مرة أخرى، ويعترف الحكيم بأنه كان أحد الذين فقدوا وعيهم فأيدوا كثيراً من القرارات الخاطئة ضد الحرية والديمقراطية، وفي ظل هذا.. كان الشعور الوطني يلقي بثقله على الحكيم، فهو لابد أن يردع هذا الحاكم، لابد أن يقول له: أنت مخطيء، ولكن لا سبيل إلى هذا إلا بطريقة مواربة وغير مباشرة، فقد كان عندما يخالجه شك ويرى منه الشطط والجور يلجأ إلى إشعاره برأيه، ويستخدم في ذلك قلمه وموهبته، فخاف مرة أن يجور سيف سلطانه على القانون والحرية، فكتب (السلطان الحائر)، ثم خاف أن يكون غافلاً عما أصاب المصريين قبيل حرب ٦٧ من القلق والتفكك فيعتمد عليه في الإقدام على مغامرة من المغامرات، فكتب له (بنك القلق) وهي جميعها كتابات رفيقة بعيدة عن العنف والقسوة، تشير إلى المقصود في هدوء وحكمه، أما (عبدالناصر) فقرأ كل ما كتبه الحكيم، ولعله فهم مقصوده، ولكنه لم يأخذ به في شيء مما سلك، وهي الطريقة المتخفية التي لجأ إليها الحكيم حتى لا يجلب لنفسه الضرر من حاكم أرعن مغرور جر على بلاده عارًا وهزيمة من سياساته الحمقاء وقراراته الهوجاء، وهذا هو المثقف الحقيقي الذي تلقي الثقافة على كاهله مسؤولية تجاه مجتمعه وأمته، وقد أعجبني ما قرأته عن أصل كلمة (ياخراشى).! وهي المقولة الشعبية الشائعة على ألسنة المصريين، فيذكر أنها قيلت لأول مرة من الناس في مصر، قبل ألف عام، ويقصد بها النداء لشيخ للأزهر الشيخ (سليمان بن صالح الخراشي)، الذي عظم سلطانه، فكان ينصر المظلوم والضعيف ويؤيد الحق ولا يخاف الظلم مهما علت قوته، فكانت كلمة (ياخراشي) هي النداء إلى الشيخ (الخراشي) من كل المظلومين، كي ينصرهم على الظلم الواقع عليهم، حتى ولو كان من صاحب سلطان ، فإذا ظلمهم ظالم قالوا : يا خراشي ، وإذا ظلمهم حاكم البلاد، قالوا : يا خراشي، وإذا اختلف الناس، قالوا: يا خراشي، حتى عندما تصيبهم مصيبة يقولون يا خراشي، وفي ذلك دلالة واضحة على مدى قوة الأزهر ومكانته، وانخراطه في حياة الناس ومشكلاتهم.

لقد كان الأزهريون في هذه الحقب هم المثقفون الذين يمثلون وجدان الأمة ووعيها بواقعها.

الجاحدون.. هل يهدمون مروءتنا؟

ليس هناك من صفة أخس من الجحود في هذا الوجود، وما أكثر ما نرى من صفة الجحود هذه الأيام، تنتشر بين أناس كنت في يوم من الأيام تقتص من وقتك ومالك وراحتك لراحتهم وسعادتهم وهنائهم.!

إحساس عميق بالغدر والخيانة حينما تعطي وتمنح وتبذل وتجود، ثم لا تجد ممن أحسنت إليهم غير النكران والكفران، قد يكون قلبك قوياً فتياً أمام نوائب الحياة وصدمات الأيام، يستطيع أن يقابلها بثبات ويواجهها بصلابة، لكنني أثق أن صدمة الجحود قوية تعيا بها النفس عياً، ويئن لها القلب أناً، وفي حياتك لابد أن تقابل هذه الأصناف الجاحدة، ولابد أيضاً أن يعتصرك الندم على ما قدمته لهم، ولكن لابد لك أن تتمالك نفسك وتتخطى هذه الأزمة التي كشفت عن حقيقة صاحبها.

وأنت بدورك.. تجاهل هؤلاء الخونة الغادرين، واجعل صنيعهم درساً من دروس الحياة التي تتعلمها كل يوم، تعلم أنك لم تخسر شيئاً وإنما هم الخاسر الأكبر، حينما خسروا رجلا ذا مروءة ونجدة، خاصم هذه الوجوه العكرة الكالحة، فرؤيتها ومعاشرة أصحابها، يُفسد عليك الحياة وقد قيل: (إذا أحببت أن تتعلم فلابد أن تتألم، الحياة مملوءة بحجارة الجحود، فلا تتعثر بها، بل ابن منها سلماً إلى قمة المجد الأخلاقي)

قد يظن المرء أن بعض الأمثال تميل إلى المبالغة، وتتجاوز حدود الواقع الحياتي بين الناس: أو أنها تعبر عن حالة فريدة وتريد أن نجعلها أصلا أصيلا في دنيا الناس، ولكن لا يمر يوم حتى نرى من الحوادث والمواقف ما يؤيدها ويثبت صدقها، خاصة تلك العبارة التي تقول: اتق شر من أحسنت إليه.

وهي لا شك من أرذل الخلائق التي يأتي بها الإنسان، حينما ينكر المعروف ويعض اليد التي امتدت إليه بالخير والإحسان، ومن المفارقات المدهشة أن هذه الصفة تحديداً لا تجدها في بعض الحيوانات التي تتسم بالوفاء لصاحبها، ولا يمكن أبداً أن تضر من تعامل معها بإحسان، وكأنها

تريد أن تعلمنا هذا الدرس، وتقول لنا: إنكم يا معشر البشر إن تنصلتم من الوفاء وأتيتم بالغدر فأنتم أقل منا ونحن أرفع منكم.

هل تذكرون ذلك الأسد الذي عدى على مدربه (محمد الحلو) وتسبب في وفاته؟! لقد فعل ذلك في غفلة منه، وحينما غلبت عليه طبيعته الوحشية، لكنه لم يلبث أن أصابه الحزن الكثيف بعد موت مدربه، ليمتنع عن الطعام ويمرض ثم يموت.

ثم هل تعلم قصة هذا الكلب الشهير الذي خلد اليابانيون قصته وصنعوا له ثمثالاً شهيراً وجعلوا منه رمزاً للوفاء، إنه الكلب (هاتشيكو) الذي كان يملكه (هيده- سابورو أوينو) الأستاذ بجامعة طوكيو، والذي اعتاد مرافقة صاحبه إلى محطة القطار عند ذهابه للعمل، وحينما كان يعود يجد كلبه في انتظاره، وصار هذا التقليد شيئاً معلوما ومألوفاً لدى المسافرين، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لم يعد فيه البروفيسور، فقد توفي إثر إصابته بجلطة دماغية عام ١٩٢٥م، ولكن الكلب الوفي ظل ينتظر صاحبه، ولا يستطيع أحد من الناس أن يخبره بما حدث أو يصرفه عن الانتظار الذي طال وسيطول، لقد حاول الناس صرفه من هذا المكان بشتى الوسائل، ولكنه أصر على الانتظار الذي لم يستمر يوماً أو يومين وإنما طال انتظاره لعشر سنوات كاملة!

كان المشهد يثير الإشفاق في قلوب الناس، حتى أن بعضهم ذرف الدموع، وكتبت الصحافة عن وفائه النادر، وصارت قصته حديث الأمة اليابانية حتى أن المعلمين في المدارس كانوا يضربون به المثل لطلابهم ويعلمونهم به، أن يكونوا أوفياء لوطنهم كما كان هاتشيكو وفيا لصاحبه، وفي عام ١٩٣٥م عثروا على جثته ميتاً بأحد الشوارع، فأحاطوها باحترام وتقدير، وجرى تحنيطها وعرضها في المتحف الوطني للعلوم في اينو بطوكيو.

وفي أحد المقاطع الشهيرة على اليوتيوب، تظهر قصة مؤلمة تجسد معنى الجحود والنكران والأنانية وانعدام الإنسانية، هاهي امرأة حزينة استمع إليها الناس وتفاعلوا مع قصتها المأسوية التي تعرضت فيها لآلام الجحود، التي لا يشعر بها غيرها، حينما تبرعت بكليتها لمديرتها في العمل، ولكن الأخيرة قابلت ذلك الفضل والإحسان بفصلها من العمل، لأنها أخذت وقتاً كبيرا في عملية الاستشفاء وفترة التعافي، وهكذا تكون المكافأة لمن وقفت بجانبها وضحت من أجلها

بجزء من جسدها، حتى تنقذها من الموت وترحمها من الآلام، ويالها من امرأة صغيرة حقيرة معدومة الخلق متبلدة الضمير والمشاعر، لا تبالي بأن تحمل عضواً من جسد امرأة تستأنف به حياتها ثم تهينها وتفجعها وتقطع رزقها وترم بها في الشارع ذليلة كسيرة.

وأمثال هذه المرأة كما قيل: تعودوا أن يأخذوا ولا يعطون، يعيشون في وحل الأنانية إلى أذقانهم ويحبون ذواتهم إلى حد مخيف، لا يرون معه سواها ولا يبالون بالآخرين، من حولهم حتى من أسدى إليهم معروفاً، فإنهم يكفرون به أمام نداء الأنانية الوحشي، بدناءة مفرطة لا تمنعهم أن ينتهجوا الخبث حتى ينالوا ما يريدون ثم تظهر حقيقتهم المرة التي تتجرد من القيم والشهامة والمروءة ويصدق فيها قول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريمَ ملكته ** وإن أنت أكرمت اللئـــيمَ تمّردا

ويصدق فيها قول زهير:

ومن يصنع المعروف في غير أهله ** يكن حمده ذماً عليه ويندم

إن خطورة الجحود على المجتمع وعرة مذهلة، لأنه يجفف مشاعر البر في نفوس المحسنين، التي تعرض جراء ما تقابله من صور الجحود المختلفة، ولماذا لا تنأى بنفسها عن هذه الصدمات القاسية، ولكن بعض الفاهمين يقول:

(لا تستغرب إن أعطيت أحدهم عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، فشجّ بها رأسك.!)

إنه سائر على طريق الخير ويتوقع أن يكون هناك جاحدون، ومع هذا لا علاقة لهم بما يقدم، لأنه حينما يقدمه فإنه يقدمه لله وليس للناس، فإياك أن يمنعنك جحد جاحد أو ناكر جميل من ترك فعل الخير، وتذكر دوماً أن فعل الخير إنما هو لوجه الله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، قال الله تعالى: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا)

وقد نأى رسولنا الكريم ﷺ بأمته عن هذه الطباع المقززة ، التي لا تنسجم مع طبيعة المسلم، فحثهم على الاعتراف بالجميل وعدم نكرانه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال

رسول الله ﷺ: (من أُعطيَ عطاءً فوجد فليجْز به، ومن لم يجد فليثن فإن مَن أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلَّى بما لم يُعْطَهْ كان كلابس ثوبَي زور)[1]

إنه الجحود.. لا يقابله جزاء إلا سخط الله. !

والإسلام يريد من أتباعه، نفوساً نبيلة سامية تعترف بالفضل لأصحابه وتشكرهم على معروفهم، بعيدة كل البعد عن الجحود والنكران،..(فالجحود سم زعاف يسكبه الجاحد في كأس الحياة لنتجرعه رشفة بعد رشفة، حتى يقضي على جماليات الحياة ويميت فينا كل معاني الصدق والثقة والتعاون والعطاء بسخاء، كم هو مؤلم أن يعيش الإنسان لذاته، فالجاحد شخص انتهازي وصولي، شخص معدوم الضمير والإحساس، شخص نرجسي يرى في نفسه ما لا يراه في الآخرين، شخص يريد أن تُسَخّر له الدنيا بما فيها لأنه يرى أنه صاحب استحقاق في الحصول على كافة الخدمات دون اعتراف بالجميل والمعروف، شخص مخادع يتقمص ويلبس ألف قناع وقناع لصالح مصالحه الذاتية، شخص يقطف أجمل وأطيب زهور الشخصية المعطاءة دون رحمة أو تقدير لتلك الروح الطيبة التي جبلت على العطاء بسخاء لإسعاد الآخر، جبلت على العطاء بالطيبة والحنان حتى ولو يكون على حساب راحتها)[2]

إن النفوس السوية المعتدلة تراها كريمة وفية، تقر بالفضل لأصحابه، وتحمد صباح مساء من أسدى إليها معروفاً، وترى جميله طوقاً حول رقبتها لا تنزعه أبداً، بل تراها تستمتع بذكر هذا الجميل فتتحاكى به ليل نهار، وتقص نبأه على القاصي والداني، لا تخجل من ذكره وتكراره، ولا يخجل صاحبها أن يقول أمام الناس: أكرمني فلان، وأحسن إلى فلان.

لأنها نفوس جبلت على الوفاء، وتحلت بالنقاء.

يروي الإخباريون أن الحجاج لما ظفر بالخارجي (عامر بن حطان) أمر بضرب عنقه، وقام السياف على رأسه ، فقال الحجاج من شدة حنقه على عامر: اضرب عنق ابن الفاعلة ! فرفع عامر رأسه وقال للحجاج: بئس ما أدبك أهلك يا حجاج! أبعد الموت غاية أستبقيك لها؟! ما الذي آمنك أن أراجعك بمثل ما ابتدأتني به من السب؟! فاستحيا (الحجاج) ونكس رأسه.

[1] - صحيح أخرجه أبو داود والترمذي

[2] - لما الجحود يا تلك النفوس؟ د. سلمى الدوسري

ثم رفع رأسه فقال لعامر: أفيك موضع للصنيعة؟ قال: نعم، فدعا له بفرس بسرجه ونفقةٍ، وقال: امض لشأنك، فلما صار إلى قومه قالوا: عد لقتال الفاسق – يعنون الحجاج- واللهُ أطلقك لا هو فقال: هيهات! غل يداً مطلقها، واسترق رقبةً معتقها، ثم قال:

أأُقاتل الحجّاج عن سلطانه ** بيدٍ تقرّ بأنّها مولاته

إني إذاً لأخو الدناءة والذي ** عفّت على عرفانه جهلاته

ماذا أقول إذا وقفت موازياً ** في الصفّ واحتجّت له فعلاته

وتحدّث الأكفاء أنّ صنائعاً ** غرست لديّ فحنظلت نخلاته

أأقول جار عليّ، إني فيكم ** لأحقّ من جارت عليه ولاته

تالله لا كدت الأمير بآلةٍ ** وجوارحي وسلاحها آلاته [1]

وفي حياته كثيراً ما عانى عميد الأدب العربي (طه حسين) من الجحود ومقابلة الإحسان بالجفاء والهجران والإساءة، لقد كان الرجل خيراً محسناً كريماً لا يتأخر في مساعدة من حوله من معارفه وقاصديه، ولا يتوانى في تحقيق آمال أصحابه والسعي لقضاء حوائجهم، لكن الجحود الذي كان يلاقيه، لم يمنع من خصاله الطيبة الكريمة أن تستمر في منهجها وطريقها، وكان من حوله يلومونه على إحسانه لمن لا يستحق، وأنه يضع المعروف في غير أهله، أما الذين لقي منهم هذا الجحود فما أكبرهم وما أكثرهم!

ولك أن تتعجب أن يكون منهم هؤلاء الرواد الكبار، والشخصيات العلمية المرموقة، والذين نعرض مواقفهم معه حسب ما ذكره تلميذه الدكتور (محمد الدسوقي) في كتابه الشيق (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) والتي لاحظت تكرارها في مواقف شتى، ومع أناس كثيرين وكان منهم الدكتور (أحمد أمين) صاحب (ضحى الإسلام)

(حيث كان العميد عضواً بلجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان (أحمد أمين) يلجأ إليه في حل مشكلات أبنائه في التعليم، وكان طه يعاونه قدر المستطاع، حتى أنه استطاع أن يوفر لبعض أبنائه فرصة السفر للخارج للدراسة على حساب الدولة، ولكن أحمد أمين مع ذلك تنكر له وانضم مع

[1] - إعتاب الكتاب لابن الأبار

الدكتور السنهوري ضد طه حسين، وكان يقول: من الغريب أني أحسنت إلى كليهما، وكنت أعمل على تحيق ما يطلبان مني ومكرا بي، ولست أدري سبباً لهذا!

وأذكر يوماً في جلسة من جلسات المجمع، أنه حدث خلاف بين الأعضاء فيمن يتولى الإشراف على المعجم الكبير، فلهذا الإشراف مكافأة مقدارها ثلاثون جنيهاً شهرياً، ولما احتدم الخلاف، وكان الدكتور (أحمد أمين) يصر على أن يعهد بالإشراف إليه، وقفت وقلت: ما رأيكم فيمن يتولى الإشراف على هذا المعجم مجاناً، واعترض الدكتور (أحمد أمين) على هذا، فقال له (لطفي السيد) وكان رئيساً للمجمع: هل تشك في قدرة الدكتور طه العلمية؟فرد الدكتور (أحمد أمين) بالنفي ولكنه أضاف: ولكن الدكتور طه بإعلان رغبته هذه يعلمنا دروساً في الأخلاق)

أما السنهوري فقد ساعده (طه حسين) ولكنه كان ممن أساؤوا إليه، فقد كان النقراشي مع النحاس ثم انشق عليه، وانضم السنهوري للنقراشي وخاض معه في السياسة حين عُين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي لكن السنهوري أخذ يكيد لي ويتآمر عليه وهو لا يدري.

وقال: إن نكران الجميل شيء فظيع ويبدو أنه مرض متفش في الدنيا، ولكن هذا النكران لا يؤثر فيّ لدرجة أن يحول بيني وبين عمل الخير ما استطعت، وهذا يذكرني بمثل إسباني يقول: قال الرجل لصاحبه إن فلاناً يذكرك بسوء، فرد عليه وقال: عجباً كيف يفعل وأنا لم أقدم له معروفاً قط.

ولك أن تتعجب أن (طه حسين) هو السبب المباشر لشهرة الكاتب الكبير (توفيق الحكيم) تلك الشهرة التي كان لابد للحكيم أن يحمل جميلها طول عمره، حتى حدث ما حدث.!

قال العميد: (كنت سبباً في شهرة الأستاذ (توفيق الحكيم)، وجذب الأنظار إليه، واهتمام الناس به، فقد كتبت عن مسرحيته (أهل الكهف) مقالاً أشرت فيه إلى أن هذه المسرحية عمل فريد وجديد في تاريخنا الأدبي، وكنت قبل قراءة هذه المسرحية لا أعرف شيئاً عن الأستاذ الحكيم وقد أحضرها لي الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ حسين محمود، وطلبا مني قراءتها ونقدها، وقد أعجبت بالمسرحية وكاتبها، وبعد نشر هذه الكلمة بعث إلى الأستاذ الحكيم برقية شكر من دمنهور، حيث كان يعمل في النيابة هناك، وصمت برهة ثم قال:

ولكن الأستاذ الحكيم غضب مني لأني كتبت عن شهرزاد وقلت: إن الأستاذ توفيق في حاجة إلى مزيد من القراءة الفلسفية، فقد أرسل إلي خطاباً يشتمني فيه، ويقول بأنه قرأ في الفلسفة أكثر مما قرأت، وأنه ليس في حاجة إلى نصائحي، ومن يومها نسي الأستاذ توفيق كل شيء ولا يجامل في أية مناسبة)

ولعل بعضنا يشخص الداء تشخيصا خاطئا حينما، لا يعرف حقيقة هذا الذي يطعمه بالملعقة من فمه ثم يدور حوله ليطعنه في ظهره، وهو تمامًا ما فعله الكاتب (خالد القشطيني) حينما كتب يقول: (أنا منبهر بحضارة الغرب، كيف لا أنبهر؟! قبل أشهر قليلة، اكتشف الطبيب الإنجليزي أن حياتي معرضة لخطر جسيم، أجرى العملية، فتح صدري وأزال ضلوعي، وأخرج القلب ووضعه في ثلاجة، ثم أزال شريانا عاطلا فيه وجاء بشريان سليم انتزعه من رجلي ووضعه في مكانه وربط كل شيء وأعاد ضلوعي لمكانها وأغلق صدري، قام بكل ذلك وأنا نائم لا أشعر بشيء، وخرجت من المستشفي ولم أدفع فلسا واحدا له، لولاه لكنت الآن تحت التراب نسيا منسيًا، من اكتشف هذه العملية وطورها لفائدة كل البشر أينما كانوا.. الشيخ أبو قتادة أم أسامة بن لادن؟

عدت للبيت لأواصل عملي بفضل الكومبيوتر الذي يقوم لي بكل شيء الآن، لا يمر يوم إلا وأسمع عن إضافات تطوره وتزيد في قدراته، من اخترعه وجاءني به.. صدام حسين أم القذافي؟ وكل ما بيدنا من طيارات وسيارات وكاميرات وتلفزيونات وراديوهات، من اخترعها وصنعها وجهزنا بها؟

كانت أوبئة الطاعون والجدري والكوليرا تجتاح بلادنا وتفتك بالملايين منا، من قضى عليها وخلصنا منها؟ أنا واحد ممن ذاقوا الرعب المريع من مرض السل، الشبح الذي كان يقض مضاجعنا، من جاءنا بالدواء الرخيص للقضاء عليه؟ ومن يقوم الآن بهذه الجهود الجبارة للوصول لعلاج للسرطان؟ ليس بينهم طبيب واحد يساهم في هذا المجهود من بلادنا.

ومع ذلك لا ننفك نشتم الغرب ونحملهم كل مصائبنا التي هي من صنعنا، كل ما في العراق من مرافق حيوية، بريد وبرق وسكك وموانئ وبرلمان أسسها الانتداب، ولكن القوم لا ينفكون

يشتمون الاستعمار، كل ما لدينا من ثروة يعود للنفط، من اكتشفه واستخرجه وسوقه وأعطانا حصة من ثمنه؟ ولكنك تسمعهم: الاستعمار يسرق نفطنا، كان السفر في العراق مخاطرة عصيبة حتى تولى العقيد (لجمان) توطيد الأمن على الطرق، قتلوه وراحوا يتغنون بقتله، ولولا الطائرات الأميركية لما استطاعت ليبيا دحر القذافي، كافأهم الليبيون بقتل سفيرهم الذي كان يناصرهم! نحن قوم جحود لا نعترف بالفضل ونقطع اليد التي تمتد لمساعدتنا.)

ولا شك ان الكاتب يرى الصورة بعين واحدة، أو حسب ما يحلو له أن يراها، وأمام هذه الصورة الزاهية التي رسمها وأراد من وصفها أن يسمنا بالجحود، هناك صورة أخرى أكثر سواداً وفزعاً لهذا الغرب الذي يطالبنا الكاتب أن نسجد له ما دام أنعم علينا بالمخترعات العصرية، والتي كنا نحن السبب المباشر في نواتها وأصولها وبما عرفوا من حضارتنا وعلومها، وأقول للكاتب: من الذي استعمر البلاد وأهان العباد وسرق الثروات وبدد أحلام الشعوب وضيع أمنها واستقرارها وقتل ملايين البشر؟! من الذي اخترع أمام ما ذكرت من الطب والجراحة والأجهزة النافعة آلات تفتك وتدمر وتزهق روح الناس من رصاص ومدافع ومجنزرات وطائرات ترمي بالحمم على رأس الإنسان؟

من الذي اخترع القنبلة النووية ورمى بها على اليابان؟ من الذي أهان كرامتنا واحتل أوطاننا؟ من الذي دبر المؤامرات وأوجد الفتن بين طوائف الوطن الواحد حتى لا ينهض أو يقوم؟

من الذي صدر لنا العري والإباحية والانحلال والإلحاد ليهدم أخلاقنا وقيمنا؟ من الذي يقف في وجهنا كلما أرادنا أن ننهض ببلادنا، وننعم بالديمقراطية وتظللنا الحرية، فيغرقنا في المحن والمشكلات التي لا نستطيع منها فكاكًا أو خلاصاً؟

أسئلة كثيرة تحتاج إلى جواب الكاتب قبل أن يتهمنا بالجحود.

المحتويات

..... ١

مقدمة ٤

عش لغيرك!..... ٧

السعادة الحقيقية ١٤

أحب الناس إلى الله ٢١

خدمة الناس عبادة ٢٩

يسارعون في الخيرات ٣٦

طريق النجاة..... ٤١

ويؤثرون على أنفسهم..... ٤٦

دلائل الاصطفاء ٥١

لا تحقرن معروفك! ٥٥

المنكسرون ٦٢

نداء للأغنياء ٦٩

ثقافة التطوع..... ٧٥

أثرياؤنا المُحرَجون..... ٨٢

ركائز المصلحين ٨٧

من هم العظماء؟!..... ٩٦

خدام لا حكام! ١٠٣

فارس في ميدان الإحسان ١٠٩

المثقفون في معترك الحياة ١١٤

الجاحدون.. هل يهدمون مروءتنا؟..... ١١٩